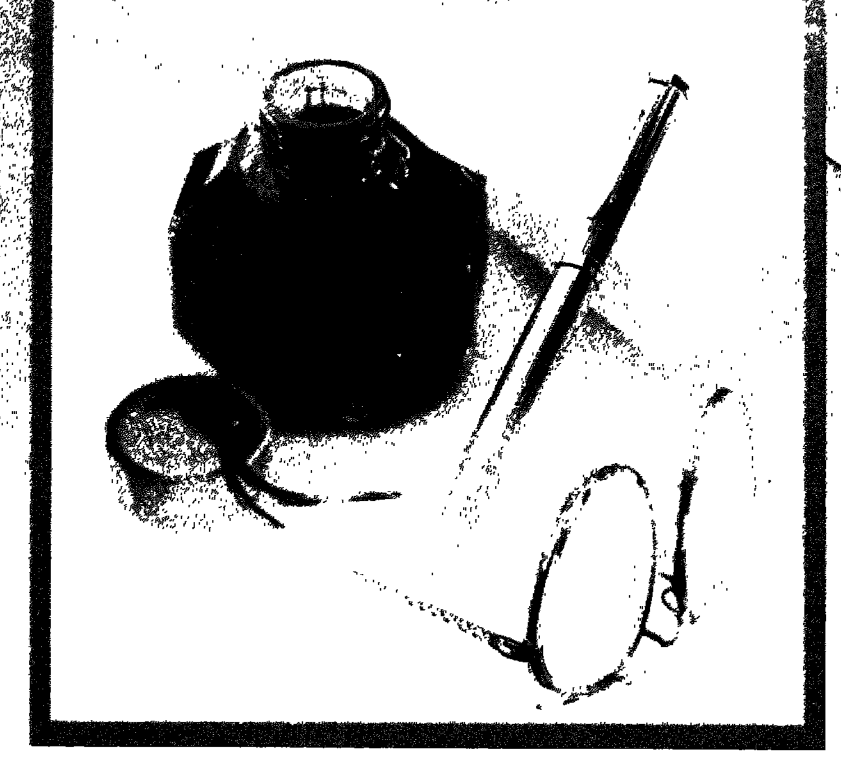


الرحى والردى

الكاتب السوداني
كمال يوسف



دار الأحمدي للنشر



الرحى والردى

كمال يوسف جميل



دار الأحمدي للنشر

دار الأحمدي للنشر
القاهرة : ١٥ ش عبد الخالق ثروت
تليفاكس : ٥٧٧٠٦٢٥ / ٠٢
المنيا : ٧٨ ش طه حسين
تليفاكس : ٣٤٧٨٠٢ / ٠٨٦

الرحى والردى

تأليف : كمال يوسف جميل

التنفيذ الفني : الأحمدي جروب
الطبعة الأولى : يناير ٢٠٠١
رقم الإيداع : ١٢٦٦٥ / ٢٠٠٠
الترقيم الدولي : 8 -34 -5887 -377

تصميم الغلاف : كامل جرافيك - القاهرة

الإهـــــداء

إلى كل من ينشد العـدل .. والفضيـلة .. والجمـــال ..

كمال يوسف جميل


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقدمة

من رحى الحياة الدائرة وما بين قطبيها من متباينات ومتناقضات ..
ومن أقصى يمين السعادة المترفة وحتى أقصى شمال الشقاء والتعاسة ..
ومن براثن الردى وقبضته الدامية الموجعة وما يخلفه من حسرات وأسى وعظات وعبر..
ولتجاوز حضيض الواقع المرير للحاق بمراكب الطموحات الفارة..
هذا صوت خافت بالدعاء والثناء على المفكرين ، حداة الركب ، وأن ليس لنا مخرج مما نحن فيه إلا بعون الله وجهدهم ، وأن لهم قيادة مسيرة المجتمع لما فيه صلاحه .
وإذا كان جهاد النفس هو الجهاد الأكبر عند فئات المجتمع الأخرى، فإنه يضاف إليه جهاد الفكر عند هذا النفر الذين اختصهم ربهم بقدرات ومواهب لإنجاز مهام القيادة والريادة .. وهى مهام جد عسيرة .. من أهمها تجاوز تناقض الموروثات الشعبية عن الدين مع كل من الواقع والتطور ، وحقائق الدين نفسه ، وصولا لتصالح مع دين الله الحق ودعوته الملزمة للتقدم الإنساني المطرد ، ولتحقيق معدلات سعادة مرتفعة لأكبر عدد من الأفراد .
عرضت بعض ما جاء في هذا الكتاب على بعض المهتمين من شيوخ وأكاديميين : قال د . الحبر يوسف نور الدائم بأهمية العمل وبذل الجهود لإكماله بإنجلترا .. وتبينت لي مصداقيته ، مثله د . حسن حسين – جامعة الجزيرة - الذي اقترح تكوين لجنة مصغرة والعمل في سرية ، أما د . حسن مكي فقال بنشره ومناقشته على نطاق واسع تحت إشراف لجنه منه وأمين حسن عمر والمحبوب عبد السلام .. واعترض الأخير على النشر ، وسلم د . أحمد على أمام ملزمته المصورة لأحد كبار الشيوخ بجامعة القرآن الكريم ، حيث

سارع الشيخ بتكفيري .. لكنه تراجع بعد جدال مرير ، وهــذا تقييم معظم الشيوخ .. على عكس الأكاديميين الذين قال بعضـهم إن هـذا العمل قد يشكل الأساس لقيام دولة إسلامية حديثة .

وفر بعض المعلومات عن الطفل وساعد في إخراج هذا الكتاب فنيـا الأخ / على محمود جميل فله الشكر .. ولكل مـن شـارك ماديـا أو معنويا .

كمال يوسف

القاهرة ٥ / ١٠ / ٢٠٠٠ م

الباب الأول

شرقستان وغربستان

تأسيس

تتعدد الأهداف الحياتية للأفراد والجماعات ، كل باختلاف وعيه وفكره ومتطلباته ، إلا أنه يفترض إن تكون السعادة هي هدف استراتيجي لكل الأفراد . ولعله من المفيد هنا أن نؤكد أن الهدف الاستراتيجي يتطلب جهدا جادا وإدراكا منظما .. وتضافر عوامل عديدة لتحقيق السعادة للفرد ..

وهنا يبرز السؤال المهم عن ماهية السعادة :

أهي الشعور بالرضى والإشباع ، السرور والضحك ؟

أم أنها ثمار السعادة ومؤشراتها الدلالية ؟

وبما أنها مطلب واحتياج إنساني عام ، فإننا نجد لها الكثير من المفاهيم الحقيقية والمجتمعة على مستوى الفكر والخطاب الاجتماعي اليومي السائد .

فأما على مستوى الفرد فإنه دائما ما يربط سعادته بشخص معين أو شئ حسي معلوم يكون هو مصدر إسعاده ، ويكون أكثر صدقا إذا أعلن أن شقاءه مرتبط أيضا بنفس المصدر . والشواهد الشعبية على ذلك كثيرة ، والتصالح الاجتماعي في ذلك عميق وله جذوره الضاربة في تراثنا وثقافتنا ..

ولعل المقطع التالي خير دليل لما ذهبنا إليه :

في سبيل نظرة من عيونك

أحتمل كل ما ألاقي ..

كيف تكون السعادة دونك ؟

والشواهد في ذلك كثيرة في الأدب العربي والعالمي . ولكون الصحة والحالة المادية ، الاجتماعية ، العقلية والفكرية من أهم العوامل المحددة السعادة والتي تؤثر في مدى سعادة أو شقاء الفرد تأثيرا مباشرا . وللاختصار والتيسير نضع نسبة افتراضية متساوية

لكل عامل من تلك العوامل هي ٢٥ % ، ويكـــون المجمـــوع الكلـــى مساويا ١٠٠ % . ونضع عاملا حديا حاسما كحد أدنى لكـــل عـــامل بحيث لا يقل عن ٥ % ، بمعنى أنه بعد تحقيق الحد الأدنى ٥ % مثلا لكل العوامل يمكن أن نجرى عملية جمع تراكمـــي لحســاب معــدل السعادة .

ولمزيد من التوضيح مثلا :

إذا كان العامل الحدى يقل عن نسبة ٥ % ، فهناك مشاكل يعـــانى منها الفرد تكون حاسمة في تأثيرها على العوامل الأخرى . مثـــلا إذا كان العامل الصحي بنسبة ٤ % بمعنى أنه أقل من العامل الحدى فإننـا نستنتج عدم أهمية وجدوى العوامل لأخرى ، وعليه تكون سعادة الفرد بنسبة ٤ % بصرف النظر عن إيجابية العوامل الأخرى .

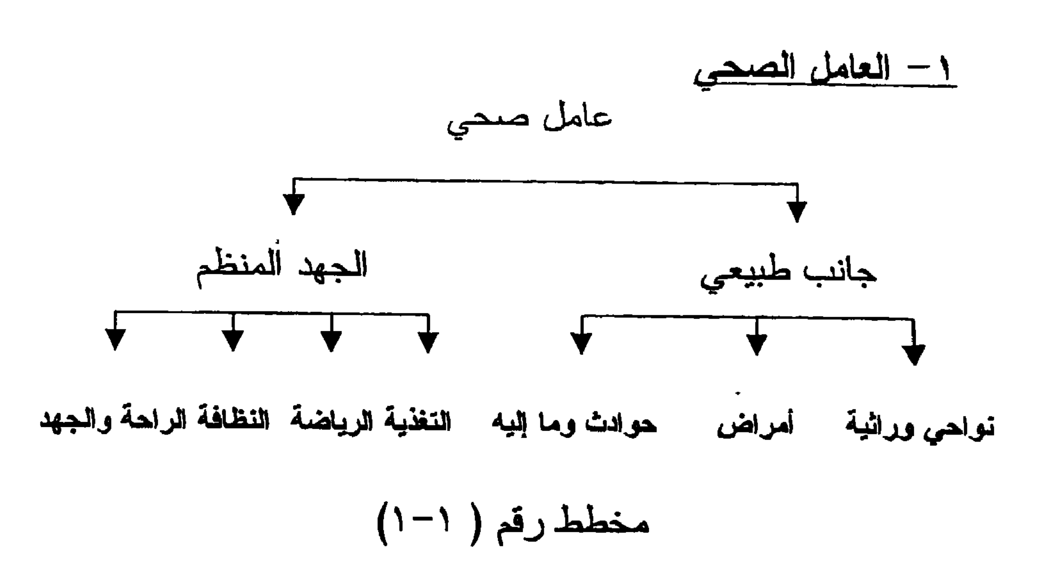
السعادة والجهد الجاد المدرك المنظم

تخضع جميع العوامل المؤثرة في مدى سعادة الفرد لجانبين يحددان مدى تأثير وفاعلية العامل وهما :

أ - جانب طبيعي　　　　ب - جانب الجهد المنظم

ولمزيد من التوضيح نقوم بإسقاط هذه الجوانـــب علـــى العوامـــل المختلفة لنرى مدى تأثيرهما على كل عامل على حدة ، وبالمحصلـــة النهائية مدى تحديدهما لسعادة الفرد :

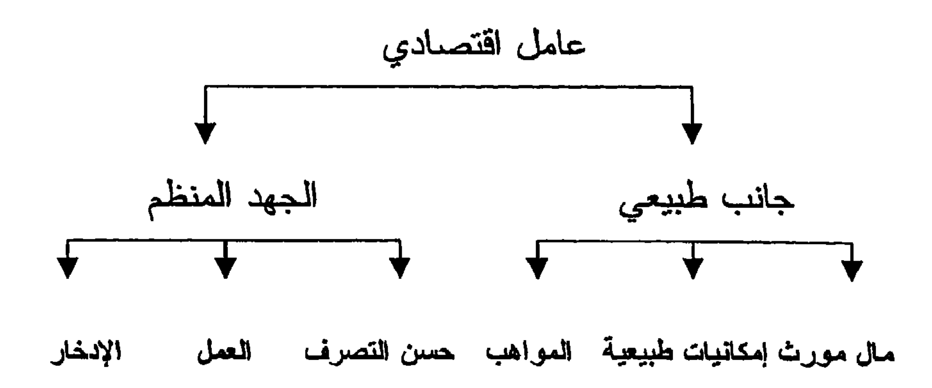
١ – العامل الصحي



مخطط رقم (١-١)

بنظره سريعة ندرك أن الجانب الطبيعي قـــد يضعــف المجــهود الإنساني المنظم في بعض الأحيان ومع ذلك يبقى للجهد يبقى الجـــهد المنظم فعاليته في رفع مستوى مساهمة هذا العامل الفرد .

٢ – العامل الاقتصادي



يختلف الأفراد عامة في تقييم وتحديد أهمية الوضع الاقتصادي في حياتهم ، في حين يرى البعض أنه فقط ضرورة لتوفير المتطلبات الحياتية وليس غاية في ذاته . ويراه آخرون قيمة أساسية في حياتهم تتحدد به مكانتهم الاجتماعية وتتناسب طردا بما يمتلكون . وهنا أيضا يتضح لنا أن الجانب الطبيعي والجهد المنظم في تفاعلهما يحددان وضع الفرد الاقتصادي ، وبالتالي التأثير المباشر على مدى سعادته .

٣- العامل الاجتماعي

يمكننا تصنيف العلاقات الاجتماعية كالتالي :

أ- علاقات اجتماعية إجبارية : وهى علاقات وراثية دائمة .. كالأسرة والعائلة .

ب- علاقات اجتماعية اختيارية : أهمها علاقات الصداقة ، وهى علاقات مبنية على التفاهم والانسجام ، ولعل اشتقاقها من كلمة " صدق " يحمل مدلولات عديدة على ماهية هذه العلاقة .

جـ- العلاقة الزوجية : ولها عوامل هامة وعديدة تتفاعل لتقرر نجاحها وإستمراريتها . ومن هذه العوامل : العوامل العاطفية ، الجنسية ، المادية ، الأخلاقية ، الروحية والفكرية ... وهى من أكثر العلاقات تعقيدا لكثرة القوى الرابطة لها والدوافع المؤثرة فيها في كل مرحلة من مراحلها:

١- الاختيار : يفترض أن يكون حرا لكلا الطرفين .

٢- الزواج : بداية الرباط المقدس وتنعكس فيه عقائد المجتمع الدينية وأحكامه القانونية وأعرافه وتقاليده ومستواه علي السلم الحضاري .

٣- الأبناء : الجيل الجديد .

ولعنا نتبع جانب الصواب والمفهوم العام إذ أكدنا أنها أهم العلاقات الإنسانية قاطبة .. تبدأ اختيارية وتنتهي كأقوى ما يكون الإلزام ،

وذلك بنظره مجتمعة ثاقبة وإدراك للواقع الحياتي ، ولهذا يكــون لــها أعظم الأثر في سعادة الفرد . ومن الطبيعي أن النجاح فيها يزيد مـــن مستوى السعادة المنشودة للفرد ، والعكس صحيح بالطبع .

٤- العامل العقلي - الفكري :

حتى يكون طرحنا موجزا فإننا نهتم بما نسميه عقل ، وما يتبعـــه من فكر ، كعامل فاعل في مستوى سعادة الإنسان بعيدا عن التطـــرق للتخصصات الفنية في ماهية الذكاء والذاكرة وما إليه . ولـــنر تـــأثير الفكر الشخصي على مستوى السعادة - حيث أن الفكر أو أسلوب الفرد في الحياة هو محصلة لمستوى ذكائه الطبيعـــي .. إضافـــة للبيئـــة ، الأسرة ، الثقافة ، التعليم ... الخ . ونشير إلى دور العقل في برمجـــة العوامل السابقة والتحكم الفعلي فيها وبالتالي أهميتـــه القصـــوى فـــي إدراك ماهية السعادة وتحقيق مستوى مرتفع منها .. إضافة للمســاهمة العقلية المباشرة . وبالتالي يتعين علينا بذل الجهد المنظـــم لتحصيـــل الثقافة والوعي والإدراك لتحقيق أكبر معدل منها .

قد أخسر الدنيا نعم
قد أخسر الكلمات والذكرى
لكنى أقول الآن ... لا
يا آخر الطلقات ... لا
يا ما تبقي من هواء الأرض ... لا
يا ما تبقى من حطام الروح ... لا

" محمود درويش "

الفصل الأول

القاهرة

رغم هذا المدى المفتوح والمتمثل في مليون ميل مربع ، ضاقت سبل الحياة واضمحلت جميع العوامل الحاسمة والمؤثرة في سعادة الفرد ، وانخفضت عن نسبة عاملها الحدي . مما يدل على إننا نعيش في جو من الشقاء القاتل . ولعل هذا هو قدرنا نحن أهل السودان ، ندفع ضريبة الأخطاء العديدة الموروثة منذ القدم ، والممتدة في سمائنا حتى الآن .

تحت وطأة المشاكل العديدة عانيت حد الارتواء ... يئست حد الغثيان ، غير أنني حاولت الصمود وكافحت من أجله أعواما عديدة . أخيرا صدر القرار : " ليس من مخرج غير الهجرة " .

القاهرة .. قاهرة – المعز .. التي كانت تأوينا ونحن طلبة في جامعة بنغازي كلما زادت الخلافات وتوترت الأجواء بين معمر القذافي وجعفر نميرى .. تحمينا من وعثاء الزمن وتقلبات السياسة ، لعل حبنا لها له الكثير من الإمدادات الطبيعية والمواقف التاريخية .

القاهرة .. القلب النابض بهموم الأمة العربية والإسلامية ، مازالت تقوم بدورها الطبيعي في خدمة الأمة ، ولم تبخل باحتوائنا نحن فقط .. بل حتى الطغاة المشردين تبقى هي ملجأهم الأخير . إنها دائما تقف كالأم الرؤوم .. باسطة ذراعيها لأبنائها ، البر منهم والفاجر .

طريقي إلى القاهرة لم يكن ممهدا تماما .. لجأت للأصدقاء الذين لم يبخلوا علي بالمساعدة وقدموا لي كل العون .. معلومات ، تسهيل إجراءات ، دعم معنوي .. ولسان حالهم بعد أماني التوفيق : " وإن أبتك دار .. فلله ديار ، وإن أبتك قريش .. فلله أنصار " . سافرت وزادي كتاب تايبى TYPEE ، كتاب مغامرات لهرمان ملفل ، وإن لم يكن مقصودا في ذاته ، لكنه كان مناسبا .

أخيرا وبعد معاناة قاسية وصلت القاهرة ، عكس زيارتي الأولي السعيدة في فبراير ١٩٧٥ حيث أقمت ببيت الشباب بالمنيل . في تلك الفترة كانت حركة سفر السودانيين محدودة للغادية داخليا وخارجيا .. نسبة لحالة الاكتفاء الذاتي التي كانت سائدة في ذاك الزمان . ليس هذا فقط ، لكن حتى عملية الاختلاط والتعامل مع " الآخر " الخارجي كانت في حيز ضيق ، وقد يكون السبب في ذلك التعدد الإثني والعرقي للسودان .. إضافة لثقافة المواطن السوداني والأوضاع الاقتصادية . هذه العوامل هي التي تجعل المواطن السوداني مكتفيا اجتماعيا داخل امتداد الوطن الواحد . وكانت الوصية التقليدية لكل المسافرين لمصر – وهي القبلة التاريخية لهم : " أعمل حسابك من ... " . ومن المفيد التأكيد أن السوداني في حينها كان يحتاج فعليا للوصية لإدراك كيفية التعامل مع الغير .

عادة ما نبدأ الرحلة بالقطار .. حيث يتم التعارف بين المسافرين ، وبسبب طباع السودانيين وتوددهم وتكاتفهم ، تجدهم يتجمعون فى وحدات متجانسة ، ليس بالعرق أو الانتماء الطبقي فقط ، لكن وأهم من ذلك للألفة والتعاطف الذي كان سائدا فى تلك الفترة . ولأسباب موضوعية أجد نفسي في كل رحلاتي أميل لأبناء غرب السودان الذين لهم محبة كبيرة عندي ، ولي العديد من التعاملات والصداقات معهم .

وامتدادا لتعارف القطار والباخرة – وكعادة السودانيين – وبعد إصرار قضيت ليلة أو ليلتين في ضيافة أسرة كريمة ، بعدها رافقني أحد أفرادها الى حيث إقامتي ببيت الشباب بالمنيل ، وبعد إتمام الإجراءات قفلت راجعا مع مرافقي .

صديق مصري

في المساء ودعت الأصدقاء متيمنا بيت الشباب لقضاء أول ليلة بعيدا عن أهلي ، واستقبلت باصا متوجها لشارع الهرم . وبما أنها

المرة الثانية لي للذهاب لبيت الشباب ، خشيت ألا أعرف محطة النزول خصوصا في ظلام الليل فكان لابد من السؤال . كنت في أواسط الباص ، معظم الكراسي شاغرة ، وأمامي مجموعة من أربعة أو خمسة شباب مصريين اصطفوا على جانبي الممر . كان باينا أن روح الألفة أو الزمالة تجمعهم . وجدتني مضطرا للسؤال عن المحطة. قبل الوصول بمسافة كافية وبغير مقدمات أو تحية سألت مباشرة ؛ كنت أتوقع الإجابة باختصار وعلى قدر السؤال إلا أن الرد جاء على غير المتوقع من أحدهم :

– الأخ سوداني ؟

– نعم

– أهلا وسهلا بك

– الله يبارك فيك .. " وجدت نفسي مكرها على المجاملة " .

– الوطن الإسلامي دولة واحدة وقديما لم يكن هذه الحواجز المصطحبة موجودة وستزول بإذن الله .

سألت نفسي : ماذا يريد هؤلاء المحتالون ؟ إن كل ما أريده هو معرفة محطة النزول ، وهم يريدون إقحامي في هذه المواضيع .. ليس خوفا من الحديث في السياسة ، إذ أننا نعتقد أن دولة العلم والإيمان التي يتزعمها السادات وفرت الكثير من الحريات ، لكن خوفا وحفاظا على نفسي من الاحتيال والنصب وما إليه .

واصل حديثه هاشا باشا :

– اسمي خالد أحمد شوقي .

– أحمد شوقي ؟ " جال برأسي الشاعر أحمد شوقي وهممت بالسؤال عن ذلك ، لكن سريعا أدركت انه لا يمكن أن يكون أبنا للشاعر " . أما هم فلا أحسب أن لديهم أحمد شوقي آخر أهم من رفيقهم .. وهنا تدخل أحدهم :

– يمكن أن تناديه الاستامبولي " هكذا وقعت بسمعي " .

تذكرت أحمد شوقي شاعرنا العظيم ، استامبول المدينة التركيـــة ، جال برأسى شعر الشاعر :

" ياخالد الترك جدد خالد العرب "

هنا زال عنى الاحتياط والحذر ، إذ أدركت أن هـؤلاء الشـباب لا يمكن أن يكونوا محتالين . وكما يقول أهلنا : الطبع يغلـب التطبـع . فمضيت معهم إلى الأمام سائلا :

– أنت خالد التركي أم خالد العربي ؟

– ليه ؟

– انتسابك لإستامبول

– لا أنا عربي ، وكنية إسلامبولى هي من الإســلام ، أمـا المدينـة إستانبول فبالنون وليست بالميم .

هكذا عدت لطبيعتي ولشيم أهل السودان وتم التعارف بيننا جميعـا .. إلا أن التركيز كان على خالد ، كان وقتها في السنة الثانية بالكليـة الحربية على ما أذكر ، ولعل مضى السنين لم يذهب عنـى الحقـائق ويوقعني في الخطأ . المهم قدم لي الدعوة لزيارته بمنزل شقيقته فـي اليوم التالي ، واستنكرت بعد أن أخذت العنوان :

– شارع الهرم ؟

– نعم

– أليس هو مكان الفساد ؟ ما كنا نظن أن به منازل سكنية عادية .

توقف برهة ، ثم جاء رده متأثرا :

– معظم السكان شرفاء . وأضاف : أما هذه المفاسد فهي سبة فـي وجه مصر الإسلام ويجب أن تتغير ، كل ذلك سيتغير بإذن الله .

صمت فترة ثم عاد لموضوعه :

– أعطيك العنوان لتأتى لزيارتي غدا

– لكنى لا أستطيع الوصول

- حسنا ما زال الوقت مبكرا . يمكنك أن تواصل معنا لترى المنزل ثم تأتى غدا .
- فليكن كذلك .

في المساء المائل للبرودة ، الخميس من أواخر فبراير ، ذهبت إلى منزل شقيقته ، على يمين شارع الهرم وعلى يسار طريق فرعى جميل تحفه أشجار متوسطة على جانبيه . بعدها أصر على العودة معي لبيت الشباب ليطمئن على وصولي ليلا . واتفقنا على تناول الإفطار سويا في اليوم التالي ببيت الشباب . ويقيني أن بحياتنا أشياء عديدة تحدث لنا بشكل غير مسبق ، كأقدارنا في الحياة ، وأن الزمن وحده لا يحدد العلاقات الاجتماعية والصلات والمشاعر الإنسانية ، ثمة عوامل أكثر إيجابية وإنسانية في ذلك تحركنا عبر مسيرتنا الحياتية . عوامل أكثر فاعلية لتحديد أثر علاقتنا وسلوكياتنا تجاه الآخرين .

في صباح الجمعة التقيت خالد مجددا – لم نفترق كثيرا منذ لقائنا – تناولنا إفطارنا ببيت الشباب – كعادتهم – " جبنه ومربى " على عجل فلدينا الكثير لنقوله . ولعل القليلين من أفراد المجتمع الإنساني يتسمون بالألفة والمودة والمحبة والاحترام المتبادل ، إذ أنها مواصفات بشرية عالية الجودة والنقاء ولا تحتاج للتعريف عنها ، حيث أنك تدركها بسهولة فيمن تعامل .

بعدها ذهبنا الى منزل شقيقته . كان جل النقاش والحوارات عن الدين والسياسة مع تركيز على الراحل السادات . حيث أننا اختلفنا كثيرا في تقييم الرجل ، ففي حين كنت شديد الإعجاب والرضى عنه كان خالد على النقيض ، ساخطا عليه . واذكر قوله :

- إن السادات يتحدث عن دولة العلم والإيمان ولكنه ينافق ولم يفعل أي شئ لتحقيق ذلك فالعبرة بالعمل لا بالقول .

وأذكر اجابتي :

- حرب ٧٣ هي خطوة جبارة وانتصار للأمة العربية والإسلامية ، إتاحة قدر من الحريات التي كانت معدومة هو خطوة إيجابية للأمام ، كما أن مجرد الحديث عن دولة العلم والإيمان هو خطوة إيجابية . بشكل عام التطور السياسي الذي حدث من النظام الملكي إلى نظام عبد الناصر وصولا للسادات ، هو تطور للدولة والمجتمع يؤكد إننا نسير بخطى حثيثة نحو الأفضل .

كان معيار صاحبي في الحكم ومبتغاه الوحيد هو إعلان الدولة الإسلامية .

عند الوداع الأخير ، مغادرا لليونان بغرض الدراسة ، تعاهدنا وأيادينا متشابكة - كالصراع أو الضغط لتحديد الأقوى والأكثر احتمالا - على أن يبذل كل منا أقصى ما يمكنه لخدمة دينه وأمته ، كل في مجاله ، أنا في مجالي الأكاديمي وهو كعسكري . وبالرغم من كونه صاحب هذا التعاقد والالتزام - وللأمانة - فإنه لم يذكر أي شيء عن تنظيم أو عمل مشترك أو ما إلى ذلك ، حتى أن عنوانه للمراسلة كان خارج إطار عمله ومهنته .

بعد قرابة الشهر من سفري قفلت راجعا من اليونان لقسوة الحياة الطلابية بها . ذهبت للسؤال عنه بمنزل شقيقته إلا أن المنزل كان خاليا . سألتني جارتهم في السكنى - بالتحديد الطابق الثاني للجهة المقابلة - عم أريد فأجبت :

- اسأل عن ناس فلانة
- من أين تعرفهم ؟
- أنا صديق شقيقها خالد

استنكرت المرأة الزيارة والصداقة ، وبعد استجواب انصرفت بدون إرشادي أو إفادتي بأي معلومة . ولعل هذه المرأة تمثل الحقيقة والواقع ، أما خالد فكان غريبا بين أهله .

لعلنا نعيش في زمن غير الزمن .. حيث اللامكان واللامعقول

الفصل الثاني

السياسة والتعليم الجامعي

بعد نتيجة امتحانات الشهادة السودانية ١٩٧٤ ، كنت قد قبلت بالمنحة الدراسية المقدمة من الاتحاد السوفيتي عن طريق مكتب العلاقات الثقافية . ومن المعروف أنه يتم القبول بعد ترشيحات وتصفيات أكاديمية عسيرة بين الطلاب ، على أن ترفع الأسماء لاعتمادها من قبل الاتحاد الاشتراكي في ذلك الوقت . ولدهشتي وجدت اسمي مرفوعا من القائمة النهائية .. ولأسباب سياسية ، علما بأني لم انتظم – وحتى الآن – في حزب سياسي قط ، اللهم إلا الاهتمام بالمصالح العامة . وكنا نحسب أنه لا رابط بين مواقفنا السياسية وحياتنا الأكاديمية ، لكنها على ما يبدو سنة الأنظمة الشمولية في كل مكان . وكان من الطبيعي أن نبحث عن فرصة للدراسة بطريقتنا الخاصة ، لانتفاء إمكانية الحصول عليها من خلال العلاقات الثقافية ، فقمت بإرسال الشهادات إلى أحد الأقارب بليبيا والذي بدوره سلمها لقادة المعارضة السودانية هناك ، والتي كانت موجودة بدعم من القيادة الليبية .

وندين بالشكر والعرفان لكل من المرحوم بابكر كرار – مؤسس الحزب الاشتراكي الإسلامي – وهو مفكر وشخصية متميزة . وزميل كفاحه الأستاذ عبد الله زكريا – مسئول اللجان الثورية للسودانيين . وتم قبولي بكلية الاقتصاد بجامعة بنغازي .

السياسة والإرهاب

في نهاية عامي الأول بجامعة بنغازي حدث ما يسمى بغزو المرتزقة للسودان ٢ يوليو ١٩٧٦ ، وفقدنا فيه اثنين من خيرة الزملاء كانا قد تطوعا ضمن المتطوعين وبتكتم شديد منهم . وللتمويه أخبرنا

أحدهم أنهم سيقومون بزيـــارة مريـــض بطرابلـــس ، بعدهـــا علمنـــا باستشهادهما . الأحداث تمت سريعة ، وتوترت الأوضاع بالســــودان خصوصا للعائدين من ليبيا ، وبذلك استحالت عودتنا في هـــذا الجـــو المشحون بالأحقاد . عولنا على قضاء الاجازة الصيفية بالقاهرة وهـــى كعادتنا ملجأنا حين تضيق بنا سبل الحياة .

في طريقي لدار عرض سينمائي تعرض الفيلم الشهير " وداعا أيـــها الصديق " ، سألت أحد الشبان ليدلني عليها ، وجـــرى بيننـــا حديـــث عفوي ، وأجبته عن أنى طالب بليبيا ... الخ . فجـــأة صـــدرت منـــه حركات غريبة واقفل الطريق صائحا : إرهابي ، إرهابي ... إرهـــابي من ليبيا ينوى تفجير السينما . وذهبت معه لإدارة الأمن ، حيث قضينا ليلتنا تلك في التحقيق كل على حدة في أماكن مختلفة . عند الفجر تـــم حجزنا حتى وصول أحد المسئولين الكبار للبت في أمرنا . ولعله كـــان عملا جادا لأجهزة أمن السادات .

صباح عيد الفطر – بعد ليله مؤلمة ، قاسية – جمعنا مسئول الأمـــن وأحسبه برتبة عميد يبدو أنه كان متميزا مهنيا وأخلاقيا . بعد التحيـــة بدأ الاستجواب :

– تكلم يا مصري .

تكلم المصري ، وقال الحقيقة تقريبا عن أحداث ليلتنا ، بعدها جـــاء دوري .

– تكلم يا سوداني .

– كلامه صحيح ، إلا أنه نسى كذا وكذا .

ولعل المصري كان يفترض إنكاري في التحقيق المنفـــرد ، لذلـــك جاءت صدمته وقال منفعلا بصوت عال :

– هذا لا يكذب ، لا يكذب .

فرد عله العميد :

– دا سوداني ، تعرف يعنى إيه ؟

ثم صرفه وتكلم بالتليفون .

(قال لمحدثه كلمة واحدة : المصري دا ... ، بعدها لم يبخل على بزمنه . أبدى مشاعره وأسفه لما حدث وطلب مني الحضور إلى مكتبه في أي وقت ، وأن بمصر الكثير من أمثال هؤلاء وسنقضي عليهم) .

كان لحديثة أكبر الأثر في نفسي ، وأذهب عني تلك الوحشية التي واجهتني يوم العيد . وعبارته : دا سوداني .. تعرف سوداني يعنى إيه أراحتني وأعادتني لذكريات جميلة كانت لي ببغداد .

السودان جزيرة

كعادتي كات محطتي الأساسية بيت الشباب بغداد ، الذي كنت العربي الوحيد فيه والبقية أجانب . وعند وصول ذات مساء وجدت أغلب النزلاء بالحديقة ، حييتهم بالشكل التقليدي ، إلا أحد القادمين الجدد استبقاني قائلا :

– أنت سوداني

– لونى منتشر في هذه المنطقة ، وكذلك التحدث بالإنجليزية .

– ليس اللون ولا اللغة !

– ممكن أعرف السبب ؟

– أنتم شئ نختلف في هذا العالم !

– في أي شئ نختلف عن الآخرين ؟

– صفات السودانيين كلها مختلفة عن العالم

وبدأ يعدد مزايا وصفات السودانيين :

– " التحية الودودة . طريقة حديثكم ، تعاملكم ، حياتكم المختلفة ، ابتسامتكم الدائمة ، كرمكم الفياض . السوداني يمكن أن يقدم كل ما لديه بلا مقابل . لا يثقل عليك بشيء إلا بتكرار السؤال عن احتياجك ليعينك " .

كنت أقف متسمرا ، ومندهشا لا أعرف ماذا أقول ، غير أنه واصل حديثة مسترسلا :

- " لأكثر من سنتين وأن أجوب العالم ، لقد زرت معظم الـــدول . السودان جزيرة معزولة ومختلفة في كل شئ عن الآخرين ، لكن هــذا الوضع لن يستمر طويلا . فوسائل الاتصال المتقدمة وحركـــة الســفر ستغير كل هذا . وإنها لخسارة كبيرة ضياع هذا النمـــوذج الإنســاني الفريد . "

الفصل الثالث

د . موريس بوكاى

كانت ليبيا وخاصة بنغازي ، فترة دراستنا بها ، مركـزا للنـدوات والمؤتمرات والمحاضرات العديدة ، لكونها تتمتع بتجـهيزات حديثـة وإمكانيات ضخمة تؤهلها في هذا المجال ، إضافـة لثقافـة واهتمـام أعضاء هيئة التدريس . أذكر منها تلك المحاضرة القيمة التي قدمـها موريس بوكاى – المفكر الكبير . لقد كانت عن المقارنة بيـن العلـم الحديث وما جاء بالكتب السماوية . اقتصر الحضور على المـهتمين بالفكر وعدد من الطلاب . وفى خلال هـذه المحـاضرة خلـص د . موريس إلى وجود تناقضات عديدة بين العلم الحديث وما جـاء فـي نصوص الكتب السماوية .. مستثنيا منها القرآن الكريم . حيـث أكـد على عدم وجود أي آية من آيات القرآن تتناقض مع العلم . وذهب الى أكثر من ذلك حيث شهد بأسبقية القرآن في تنـاول الحقـائق العلميـة والإعجاز العلمي في القرآن ، إذ ما طرحه القرآن لم يتم التوصل إليـه الا في السنوات الأخيرة . وأذكر قراءته بالعربي وبلهجة مخلة للآية :

" إن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كـل شئ حي " صدق الله العظيم

كما تطرق لما ذكره القرآن عن الخلق وعمليـة تطـور وتكويـن الجنين . وعن النقل والتفسير للآيات ذكر أن النساخ والمفسرين كـانوا يتناقلون كلاما لا يعرفون معناه ولا أهمية لديهم لترتيبه ولكنـهم فـي نفس الوقت كانوا شديدي الانضباط والأمانة ولم يحدث منهم أي تقديـم أو تأخير في ذلك ، مؤكدا وبثقة كاملة أن القرآن لم يلحق به تحريـف أو تبديل ، وهو محفوظ كما انزل : " إنا نحن نزلنا الذكـر وإنـا لـه لحافظون " صدق الله العظيم .

وكنا نجد متسعا في التحدث ومحاورة المحاضرين ، نسبة لمحدودية المهتمين بمثل هذه المواضيع . كما كان عامل اللغة غالبا ما يقف حاجزا أمام معظم الرواد . بعد المحاضرة سألته إذا ما كان قد أسلم بعد أن توصل إلى هذه الحقائق عن القرآن الكريم . فأجاب بالرفض . فوجهت له السؤال :

– إذن فما الفائدة من العلم والبحث ؟

– إن مهمتي هي البحث عن الحقيقة ونشرها وهذا ما فعلته فعلا .

عندها أخبرته أن ذلك يسمى عند المسلمين " العلم الذي لا ينفع " تمشيا مع قول الرسول صلى الله عليه وسلم : " اللهم إني أسألك علما نافعا وزرقا طيبا وعملا متقبلا " .

لاحقا علمت أنه قد أسلم وأصبح من كبار الدعاة الإسلاميين .

النقيض لمحاضرة د . موريس كانت زيارة الممثلة الشهيرة فينسيا اريد جريق – بدعوة من الأخوة الليبيين – غير إننا لم نسمع لها صوتا أو نرى لها دورا غير تزاحم الطلبة عليها لأخذ الصور التذكارية معها وجمع توقيعاتها . مالم تكن دعوتها كدعوة بطل الملاكمة للوزن الثقيل محمد على كلاي لحضور مسيرة الإسلاميين المليونية لتطبيق الشريعة الإسلامية في السودان في عهد النميرى . أذكر ما طرحه الأخوان الجمهوريون – الحزب الجمهوري سابقا – بأن دعاة المسيرة من الإسلاميين لا يهمهم الكيف بقدر ما يهمهم الكم والدعاية الإعلامية وإلا فما الحكمة من دعوة كلاي لتطبيق الشريعة الإسلامية في السودان ، هذا الكلاي الذي لم يمنعه دينه من توجيه لكماته القاتلة للآخرين بلا سبب إلا للشهرة والمال وحب الدنيا . ولعل هذه البدعة أصبحت طاغية في سلوك وفكر بعض التيارات السياسية كالمتاجرة بالدين وبالقضايا العامة .

د محمد مهدى

من ضمن المؤتمرات التي استضافتها قاعات جامعة بنغازي أكبر مؤتمر للمهتمين بالقضية الفلسطينية ، وأحسبه من أكبر وأهم المؤتمرات التي عقدت في تلك الفترة نسبة للإعداد المتقن والدعوات المكثفة مع التغطية الإعلامية القوية بالإضافة للحضور الكبير لكل الأحزاب السياسية ومختلف الأديان والمذاهب من كل دول العالم .

بدأ المؤتمرات كالعادة بالحماس الزائد والشعارات السياسية الملتهبة لكيفية تحرر فلسطين . ولعل كل الأوراق التي قدمت لم تخرج عن هذا السياق . قدمت أوراق عديدة في عشرات الصفحات تفنن مقدموها في عرضها ، حتى جاء دور د . محمد مهدى – رئيس الجالية العربية بأمريكا في ذلك الوقت . لوح ضاحكا بصفحة واحدة متوسطة الحجم متضمنة ست أو سبع نقاط . بعد تلاوته للورقة زلزل المؤتمر وعصف استقراره . بعدها تخلى المؤتمرون عن كل ما جاؤا إليه واصطفوا قوة واحدة للرد والهجوم المضاد على د . محمد مهدى ، وأنه تربية أمريكية وإن لم يقولوا العميل الأمريكي صراحة . وهكذا ضاعت القضية الفلسطينية كالعادة بين السب والتجريح . ورغم كل ذلك الخروج عن السياق الموضوعي والحوار المثمر احتفظ د . مهدى بابتسامته الودودة مستعينا بالصبر والحكمة متبعا الرد العقلاني المهذب. ولعله من المفيد هنا أن نوجز بعضا مما جاء بورقته الزلزال:

- نادى بضرورة تعديل الشعار الدائم " بالبندقية والبندقية فقط تحرر فلسطين " على أن يكون " بالكلمة ثم البندقية فالكلمة " .
- انتقد الصرف على السلاح بلا طائل وطالب بتحويل نسبة مئوية قليلة للإعلام .
- ضرب أمثله عديدة منها أنه عند وقف ضخ النفط خلال أكتوبر ١٩٧٣ وغياب التفسير العربي لأهداف المقاطعة العربية تطوع

الإسرائيليون بالتفسير على هواهم ، مستغلين إعلامهم القوى في ذلك مما كان له أبلغ الآثار السلبية على نتائج المقاطعة .

وللاختصار : لم تكن فكرة الصرف على الإعلام والاهتمام به مقبولة بالنسبة للمؤتمرين ، خاصة وأن شعارهم المقدس لا يقبل المساس – بالبندقية فقط – ولعل ما يتم الآن على الساحة العربية والدولية وما تشهده المسيرة السلمية للفلسطينيين أكبر دليل على منطقية وصواب طرح د . مهدى الذي انعزل بجسمه وفكره عن المؤتمرين . وكان للاتهامات العديدة التي وجهت له كبير الأثر عليه . وهكذا أتيحت لي فرصة ملازمته طوال أيام المؤتمر التالية وحتى مغادرته ، خففت عليه بعض الإحباط والمرارة التي أصابته وأخبرته بأن ما طرحه يعتبر الجهد العقلاني والمنطقي الوحيد في هذا المؤتمر. فقال أن هؤلاء لا يرجى منهم والأمل فيكم أنتم الشباب ، كما حدثني عن نشاطاته بأمريكا ، ومؤلفاته ودفاعه المستمر عن القضية الفلسطينية . وذكر أن لقائي به يعوضه عن جهده الذي ضاع في المؤتمر ، واقترح على السفر لأمريكا وأنه يتكفل بتوفير فرصة عمل بمنظمة الأمم المتحدة . وهكذا افترقنا على أعز ما يكون الأصدقاء على أمل اللقاء والعمل المشترك . غفر الله له واسكنه فسيح جناته حيث لا يسمع فيها لغوا ولا تأثيما.

ويبدو أن اللغو والتأثيم من أكبر المنغصات في هذه الحياة ، وهي عادة نتيجة عقليات خربة ومتدنية فكريا وسلوكيا .

د . أحمد الدرش

امتدادا للمحاضرات والفعاليات العديدة التي كانت تقام ببنغازي :

كان الدكتور أحمد الدرش – مصري الجنسية عمل لسنين طويلة بالجامعات الأمريكية – يقوم بالترجمة الفورية لمحاضر أجنبي ، فتوقف عند كلمة **Misgided** ، لم تسعفه الذاكرة بالمرادف العربي ،

وكنت حينها أجلس بالصفوف الأمامية ، فقلت له : المضللين . فكررها بالميكرفون وواصل ترجمته للمحاضرة . وقد كانت هذه بداية صداقة قوية بيننا ، وكثيرا ما دعاني لمنزله . وقد كان كريما سمحا هو وزوجته الزميلة الفاضلة " صافيناز " ، التي كانت متقنة لعمل اللحم المشوي بالجمر . أذكر إنني عرضت عليه ذات مرة موضوعا سياسيا قبل رفعة للقيادة الليبية فقال لي أنه في مثل هذه الحالة يفضل بقاء الرسائل الهامة معه لمدة أسبوع قبل التصرف فيها .

كان متميزا وله طريقة في التدريس متقدمة جدا ، حيث أنه دائما ما يطلب من طلبة القسم اختيار مواضيع ذات أهمية لدراستها ومناقشتها. وقد كانت أول المتقدمين زميلة وكان موضوعها عن دور الدول المتقدمة في تنمية الدول الأقل نموا . بعد أن أكملت عرضها للموضوع سألتها :

– هل من مصلحة الدول المتقدمة تحقيق تنمية مستدامة وفعلية للدول الأقل نموا ؟

ولإجابتها البسيطة تدخل د . الدرش معلقا أن هذا الموضوع ليس بهذه البساطة وفيه الكثير من التعقيدات والافتراضات . برغم أن مداخلته هذه أصبغت جوا من الحيوية والعمق على النقاش ، إلا أنه ترك أثرا سلبيا ومحبطا للطالبة التي شعرت بالحرج . وامتثلت للمطالبة الجماعية ألا أسال قط . الأمر الذي لم يرض عنه أستاذنا الذي ذكرنا بأهداف السينمارات الرئيسية وضرورة النقاش والحوار لتغطية كل جوانب الموضوع مثار البحث . ومن المؤكد أن طريقته كانت على درجة عالية من الإيجابية والفائدة العلمية ، وبأسلوب يجعل الطالب هو من يتوصل للنتائج . المفيد هنا أن نعقد مقارنة جزئية بسيطة بين هذه الطريقة وطرق أخرى ، ونسوق لذلك الأمثلة التالية :

عادة ما يتأخر بعض الطلبة عن وقت المحاضرة ، وتختلف ردود أفعال الأساتذة مع هذه الظاهرة .فمثلا د . البيه المصري – وهو من

الأساتذة ذوى الكفاءات العالية والخبرة الطويلة – كان يطلب أن يدخل الطالب المتأخر متلصصا من غير إزعاج ولا استئذان ، لكي لا يشوش دخوله على الأستاذ والطلبة ويعرقل مسيرة الدرس .. وقد حاولت الدخول ذات مرة – متلصصا – فلاحظت ابتسامة عريضة على وجهه . كررت نفس العملية في محاضرة د . أباز عكوك ولم يكن أستاذي ويبدو أنه قبل دخولي كان يتحدث عن ظاهرة التأخير والفوضى وعدم الانضباط . بمجرد دخولي متلصصا ثارت ثائرته وانفعل قائلا أن المدرج ليس فوضى وأن على الاستئذان ، فوليت خارجا فلحقني بالخارج وناداني لأخذ أسمي ، فأكدت له أنني لست من طلبته وكنت أود حضور المحاضرة .

جاءتني رسالة من د . الدش قبل أيام من امتحانات نهاية العام وطلب منى موافاته لأمر هام . وفعلا ذهبت لمنزله فأخبرني بأنني الوحيد الذي يهمه أن يطلعه على حقيقة ما حدث له مع أبو عكوك أثناء رئاسة الأخير لاجتماع مجلس الكلية الدوري حيث ادخل د . الدرش كلمة إنجليزية أثناء مداخلته مما أثار رئيس الاجتماع قائلا : بما أننا عرب فيجب أن نتحدث بلغة العرب لا بلغة الأعداء . فرد عليه د . الدرش أنه قضى سنينا طويلة بالولايات المتحدة الامريكية ولا يمكنه تفادى إدخال بعض الكلمات الانجليزية مهما حاول . ورفض أن يعتذر قائلا أنه ظل طيلة حياته يدافع عن العرب وقضايا أمته حتى في نيويورك أكبر معاقل الصهيونية العالمية ، وأنه لا يريد درسا في الوطنية من أحد .

ومن المؤسف أن أباز عكوك لم يترك له خيارات غير الاعتذار أو ترك العمل . وهكذا فقدت جامعة بنغازي وطلابها خبرة نادرة وشخصية متميزة لها إسهاماتها ودورها الريادي .

ما أوردناه عاليا لا يخرج من إطار الأمثلة العديدة التي واجهت الطالب منا فى مسيرته بمختلف مراحلها وبتباين تام في مواقف

الأساتذة وطريقتهم ومنهجهم في التعليم ، إضافة لسلوكياتهم في التعامل مع الطلاب ، ما يهمنا هنا إيضاح بعض جوانب التجربة وإخضاعها للبحث ، لكون التعليم حق طبيعي لكل مواطن ، ويتطلب توفير فرصة لكل طالب لديه قدرات كافيه لمتابعة تحصيله العلمي والمهني . كما وأن التربية والتعليم عاملا ، ومؤشرا ، لإحداث تنمية اقتصادية واجتماعية شاملة .

لكن ما يعنينا المحتوى والهدف من التعليم ، ونفترض هنا أسئلة قد تعين على إدراك ذلك :

- ما مدى جدوى الطريقة التعليمية السائدة والقائمة على التلقين والحفظ ؟
- كيفية تخريج طلاب قادرين على قيادة المجتمع والنهوض به .
- ماهي السلوكيات المطلوبة داخل أطر المؤسسات التعليمية والتي توصلنا لأفضل النتائج ؟

وغير ذلك من أسئلة تبحث عن إجابة . ولعل القارئ يجد في هذه المؤشرات ما يثرى الحوار .

الفصل الرابع

الزملاء الفلسطينيين

يتكون الطلبة الوافدين بالجامعات الليبية من المسلمين بجنسياتهم المختلفة من مختلف دول العالم ، لكن غالبيتهم من الوطن العربي . ومن أكثر الجاليات الطلابية عددا في ذلك الوقت كان المصريين والفلسطينيين والسودانيين واليمنيين . وكعادة السودانيين في تعاملهم يرتبطون بمعظم هؤلاء الوافدين وبمختلف جنسياتهم بعلاقات صداقة قوية تبدأ عادة فردية ثم تتحول لعلاقات وتعاملات جماعية تشمل الأنشطة الطلابية المختلفة .

في شتاء العام الدراسي ١٩٧٩ / ١٩٨٠ اعتصم الطلبة الفلسطينيون بعد أن حظرت عليهم السلطات الليبية ممارسة الأنشطة السياسية ، وجاء تنفيذهم للاعتصام تحت المطر والبرد القارص أمام مكتبة بنى غازي المركزية بحيث يكونوا عرضة للمشاهدة من كل الجهات في بلد لم يعرف مثل هذه الإعتصامات والاجتماعات الاحتجاجية . بالطبع انصرف عنهم الجميع ، ولولا أنني أتمتع بصلات مع الليبيين ودائما أقول ما أؤمن به صراحة لما جازفت بالذهاب للمعتصمين والسؤال عن حالهم ، ولي فيهم أصدقاء ومعارف. سلموني منشورا مكتوب باليد أهم ما فيه إيضاح أسباب اعتصامهم الذي جاء إثر خلافات بين القيادة الليبية والمنظمة الفلسطينية ، وأنهم يحتجون على منعهم من ممارسة نشاطهم السياسي ، حيث أنهم أصحاب قضية ويمتهنون السياسة ولا معنى لوجودهم داخل الجامعة مع هذا الحظر .

ولاحتواء الوضع تحدثت الى الزميل والصديق المخضرم خليفة النواحي الذي وافق على إجراء اتصالات مع بعض الطلبة الليبيين الثوريين والإداريين بالجامعة . وكان التحرك سريعا وفاعلا بين

الجهات الليبية والفلسطينية أسفر عن اتفاق لفض الإعتصام وتفويض لجنة فلسطينية يناط بها التفاوض مع الجهات الإدارية والسياسية الليبية.

تمت الاجتماعات مع مدير الجامعة .. جولات عديدة سادها التعنت من كلا الجانبين وكثير من الإخفاقات والخلافات . واذكر أن الفلسطينيين إثر خلاف حاد لهم مع الليبيين أصروا على السفر وعلى نفقتهم الخاصة . عرضنا عليهم دعم الجالية السودانية ببنغازي وإن أي عجز مادي سيتم تغطيته منا ، وفي نفس الوقت كنا نضغط على الليبيين للتحلي ببعض المرونة ، خاصة وأن سفر الفلسطينيين بهذه الطريقة سيعرض مصداقيتهم ووحدويتهم لامتحان عسير .

بعد بضعة أيام من العمل المتواصل تم توقيع الاتفاق المكتوب بين الطرفين وبوساطة سودانية . ولدهشتنا طرأ تغير سلبي في تعامل الفلسطينيين معنا بما يشبه المقاطعة . وبالسؤال عن ذلك علمنا من بعض الأصدقاء انهم يعتقدون بأننا عملاء لليبيين . وبعد توضيحات عديدة لنفي التهمة عنا ، قرر الفلسطينيون الاعتذار لنا عن سوء الفهم ودعونا لاجتماع بخصوص ذلك . رفضت حضور اجتماع الصلح ، مكتفيا بأصدقائي القدامى منهم وعلى رأسهم المفكر والشاعر يحيي ، الذي جمعتني به صداقة حميمة وكنا نتناقش دائما في كل القضايا المطروحة على الساحة العربية خصوصا القضية الفلسطينية والتسوية الشاملة .

وأذكر بعد نظره عندما قال : انهم في نهاية المطاف سيتفقون ويندمجون مع الإسرائيليين للعيش بسلام سويا ، وأن العرب لا يقدموا الكثير مما يخدم القضية الفلسطينية ومن الأفضل لهم الاعتماد على أنفسهم بدلا من الاعتماد على المتاجرين بقضيتهم . وقد كان هذا الرأي بعيدا عن الشعارات السياسية في تلك الفترة . هذا الطرح يشلبه

كثير رأى المفكر محمود محمد طه للتسوية الشاملة في الشرق الأوسط وسنقف عندها بشكل أكبر في موضع آخر من هذا الكتاب .

الزميلة فاطمة وزوجها

ذات جمعة من ربيع ١٩٧٦ ونحن بالنسبة الأولى تكرمت علينا الكلية برحلة حسنة الإعداد لمنطقة جبلية خضراء رائعة الجمال . عند وصولنا مكان الرحلة جاءتني الزميلة الفلسطينية التي أعرفها بالشكل فقط ، زميلة في دفعتنا التي يتجاوز عددها الثمانمائة وبمعيتها شاب وقالت موجهة حديثها له :

– هذا هو الزميل كمال السوداني الذي حدثتك عنه.

ثم وجهت كلامها لي :

– زوجي يا كمال ، طالب ماجستير لغة عربية .

وبعد إتمام التعارف ترافقنا أنا وزوجها ولم نفترق طوال اليوم ، وكانت تتردد علينا من حين لآخر للاطمئنان على أنها أحسنت صنعا ، ولتقديم خدماتها . وقد أحسنت في ذلك فعلا فقد كان زوجها على ثقافة عالية شأنه في ذلك شأن الكثير من الفلسطينيين ، مع روح إنسانية شفافة راقية وسلوك وتعامل في غاية التهذيب . تحدثنا في السياسة ، الأدب ، الدين واحتمالات المستقبل وكنا مندمجين لأبعد ما يكون . ونكرر هنا أن المودة والتفاهم والانسجام ليست بطول المدة إنما بأشياء أخرى أكثر إيجابية وفاعلية .

صباح اليوم التالي كنت مهتما بلقاء الزميلة فاطمة بالكلية لأنقل لها إعجابي بزوجها ، غير أنها لم تأت في ذلك اليوم ، وليس في ذلك ما يريب . علمت صباح الأحد أن إحدى صديقاتها تسأل عنى بانزعاج . وذهبت لمقابلة إيمان المصرية وبلهفة ، وإلتقيتها حيث اخبرتنى أن زوج فاطمة قد توفى مساء الجمعة صباح السبت . كان وقع الخبر

على ثقيلا . شعرت بأن روحي تنسل من داخلي . ذهبت لزيارتها ومواساتها .

ويبدو أن وقع الكوارث على الشعوب يزيدها مناعة وصلابة لاتتوافر في الآخرين . فقد كانت فاطمة متماسكة ، تحدثنا عن زوجها وذكرت إنني آخر من كان يتحدث عنه قبل النوم . وقال لها إنني إذا وجدت الرعاية– وليتني وجدتها – فسأقدم الكثير . وطلب منها دعوتي لزيارته بالمنزل . طلبت منى الزميلة المنكوبة أن أخذ كتبه الخاصة لأنني أقرب الناس إليه – سبحان الله .. معرفة يوم واحد – رفضت بإصرار حتى بعد أن أشاروا على بالاحتفاظ ببعضها لذكرى الصديق الراحل ، وسلمتها كاملة هدية بأسمه لمكتبة جامعة بنغازي المركزية ، تزكية لروحه وبدنه .

رحمه الله .. فقد وجدت فيه مفهوما رائعا للعلاقات الإنسانية ، ونعتقد أننا لم نذهب بعيدا عن تأسيسنا لهذا الباب حين افترضنا أن العلاقات الاجتماعية الاختيارية المبنية على التفاهم والانسجام واشتقاقها من كلمة الصدق تحمل مدلولات لهذه العلاقة . يرى الكثيرون إننا نسير في هذه الحياة عبر الزمان ولا ندرك ما قد يلقانا . قد نتفق على أن الحب والعشق والصداقة مجموعة قيم وأحاسيس تجتاحنا بدون أي فرضيات عقلانية ، فهي ارتباط الروح قد تستلبنا في لحظة قصيرة من فترات حياتنا .

فلنسع في الحياة حتى نرى
في الأرض متسعا من الصدق الدفيء

الفصل الخامس

الثورة في الجامعة

فيما تبقى من هذا الباب ، نذكر بعض الإشارات عن الوضع العام ، الذي كان سائدا بالجماهير الليبية في تلك الفترة . ولنبدأ من جامعة بنغازي التي تحولت إلى جامعة قاريونس – قرية قريبة من بنغازي – إثر مظاهرات طلابية حاشدة في نهاية عام ١٩٧٥ ومطلع ١٩٧٦ ، والتي قام بها الطلاب المعارضين لنظام القذافي وقد صاحبتها أعمال عنف دموي ، مات وقتل بها عدد من الطلاب المعارضين . ونحسبه ليس غريبا أن يتم ذلك في نظام قائم على حكم الفرد مهما تكن ميزات وإيجابيات هذا الفرد . بعد الإعدامات في أبريل ١٩٧٦ فرض الطلبة الموالين للقذافي سيطرتهم التامة على كل جوانب الحياة بالجامعة بما فيها الأنشطة الطلابية المختلفة . وقد كان النظام يعتمد عليهم كثيرا في بسط الأمن وحفظ استقرار الجامعة .

القذافى وجامعة قاريونس

الجدير بالذكر علاقة القذافى الحميمة مع جامعة قاريونس ، اذ أنه كثير الزيارات لها .. الرسمية والخاصة . وعادة ما كان يتناول معنا بعض الوجبات في مطاعم الداخلية بغير رسميات ، مثله والطلبه بمودة وروح دعابية لا أظن الآخرين يتصورونها فيه . اذكر ذات مرة في مطعم داخلية بيت عشرة بمنطقة البركة تحدث وهو جالس مصادفة بجوارنا قائلا :

" انتم أسعد الناس في هذه الحياة . كل حاجياتكم مكفولة ومتفرغين للدارسة ، تستمعون بالحياة بلا هموم ولا مسئوليات " .

ولعله كان صائبا في ذلك ، إذ كنا بجامعة بنغازي ننعم بالحياة وكل متطلباتنا متوفرة في أجمل منطقة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط.

كان القذافي يخصنا بالأحاديث الخاصة في السياسة وغيرها ، واذكر أنه حكى ذات مرة بعد اعدامات الطلبة أنه كان في زيارة للسودان للمشاركة في احتفالات بمدينة " واو " في أول يناير ١٩٧٦ . وجاءه النميرى قبل نومه وببراءة مصطنعة قدم له نشرة مطبوعة بآخر أنباء المظاهرات والعنف الدامي بالجماهيرية ، ولعلها في بدايات تدهور العلاقات بين وحدويي الأمس ، وكان قد مضت بضعة سنين على مشاركة القذافي الفاعلة لاعادة نميرى إلى الحكم عقب انقلاب هاشم العطا في يوليو ٧١ والبروفسير الشيشكلى – وزير خارجية سوري سابق – تعليق على تسليم بابكر النور وفاروق حمد الله : بأن ما تم يعتبر قرصنه تعرض لها رئيس دولة سلم لعدوه لقتله . ولأن ذلك يعتبر تدخلا سافرا في الشئون الداخلية للدول ، وأن ليبيا ستدفع الثمن غاليا .

بعد إعلان العداوة رسميا إبان أحداث يوليو ٧٦ تم قطع العلاقة السودانية الليبية ، وفى خطاب رسمي للقذافى نعت النميرى بأنه عبد . ورغم معارضتنا للنميرى إلا إننا اعترضنا على هذا النعت ، وعقدنا الاجتماعات المطولة للرد على القذافى بسبب إساءته للشعب السوداني. وكنا نحن أبناء البحر أكثر غضبا وانفعالا من زملائنا أبناء الغرب ، حتى علق أحدهم بأن الكلمة قد آلمت الجميع ، ولو كان الآخرون انفعاليين مثلنا لتفرق السودان ، وأحسبه صادقا .

القذافي ووزير خارجية ألمانيا الشرقية

ونختتم حديثنا عن القذافى بحادثة غير معلنة ، حين التقى وزير خارجية ألمانيا الشرقية – وقتها كان القذافى يضع الشرق الشيوعي والغرب الرأسمالى فيما يشبه التصنيف الموحد أمام نظريته العالمية الثالثة – قال للوزير متهكما :

– أنتم مستعمرة روسية فلا تخدعوا أنفسكم .

فرد الوزير :

– نحن بالفعل مستعمرة لدولة عظمى عدد سكانها يفوق أضعاف سكان ألمانيا الشرقية . أما انتم يا عرب فمستعمرين من ثلاثة مليون يهودي في حين أنكم أكثر منهم بخمسين ضعفا .

صمت زعيمنا على قوله . ويبدو أن السياسة والعمل العام أدت بطريقة مباشرة لتشويه شخصية ونفسية ومواقف القذافى وأحسبه من خيرة الأصدقاء إذا كان مهنيا أو أكاديميا أو شئ أخر غير كونه سياسيا . إذ يتمتع الرجل بشخصيه فريدة مرحة وودودة ، وحبه للسودان والسودانيين بلا حدود ، بيد أن التحولات التى طرأت عليه كانت نتاجا طبيعيا لاوضاع الدول العربية ونظم الحكم فيها .

الصادق دهان

من أميز الطلبة الليبيين الذين تعرفت عليهم ، الصديق العزيز الصادق دهان . رغم إيمانه المطلق بالثورة وقائدها وفيض مشاعره القومية إلا أنه كان مرنا ، وواسع الثقافة ، وكثير الاهتمامات . تربطه علاقة شخصية وثيقة مع قائد ثورة الفاتح من سبتمبر .

وعن طريقه تعرفت بأبرز الطلبة الثوريين .. منهم على سبيل المثال : محمد الأسود وعمر السوداني واحمد إبراهيم . ورغم توطد العلاقة بيننا إلا إنني لم ألتزم معهم خطا تنظيميا ، محافظا على حريتي الفكرية من التقييد داخل الأطر الحزبية ، كما رفضت تحقيق أي مكاسب مادية عن طريقهم . رفضت دعوات واستضافات وتذاكر طيران قدمت لى . وبما أنني كنت مهتما بالكتابة والترجمة ، عرض على الزميل الصادق العمل كمستشار بوزارة الثقافة ، إلا إنني رفضت، على الرغم من رؤية الصادق أن ما يقدمه ليس من باب الاسترضاء ولكن مقابل عمل حقيقي أقوم به ، مع إعطائي كل الحرية في التعبير عن قناعتي كاملة مهما كان الموضوع والخلاف . ولعل

مبدأ رفضي يكمن في أن الدين والسياسة والفكر ليست مهنا لاكتساب العيش إلا في نطاق إداري أو فني ... الخ ، وأن إدخال الحسابات المادية يؤدى بالضرورة إلى انحراف الفرد والفكر .

الفصل السادس

ثورة شعبيه أم انتفاضية حرامية ؟

عندما رفع الرئيس الراحل أنور السادات أسعار الخبز في يناير ٧٧ اندلعت مظاهرات عنيفة بمصر ، وصفها السادات بانتفاضية الحرامية، غير أن القيادة الليبية وصفتها بالانتفاضة الثورية والشعبية التي ستقتلع نظام السادات (الخائن العميل) ، وهللت وكــبرت لذلــك القيــادات السياسية ، والإعلام بشتى وسائله . قابلت الصادق دهان وعبرت لــه عن رأيي بأن ما حدث لم يكن بانتفاضة حرامية ولا ثورة شعبية ، إنما هو انعكاس طبيعي ومباشر للأوضاع الاقتصاديـــة المصريـــة . وأن الشعب المصري يحارب ويكافح من أجل القضايا العربية ، فإذا حدثت الهزيمة فهي مصرية ، أما النصر والمكاسب فهي عربية . وأن هــذه آخر فرصة يمنحها السادات للأنظمة العربية ، فإمــا الدعــم المــادي والمعنوي الكامل لنظامه وإلا عقد صلحا مع إسرائيل . وعليه يتعيــن على النظام الليبي – القيادة الثورية الليبية – اتخاذ قرارات ثوريـــة ، استراتيجية ، مصيرية وسريعة تتمثل في :

أ – وقف الحملة الإعلامية والسياسية المضادة لنظام السادات .

ب – تقديم الدعم الفوري والكامل وغير المشروط .

جـ– تبنى استراتيجية جديدة للتعامل مع مصر ونظامها .

د – دعوة الدول العربية بنشاط دبلوماسي ليبـــي لإقنـــاع الأنظمـــة العربية لاتخاذ قرارات مماثلة .

وعبرت عن رأيي بأن السادات يتمتـــع بشـــجاعة تكفـــى لاتخـــاذ القرارات المناسبة والحاسمة التي يراها أصلح لبلده ومواطنيه .

اندهش الصادق ، وأكد أن من الاستحالة أن يتم ذلك ، وفى حالـــة حدوثه ستكون نهاية السادات . واتفقنا على أن أقوم بكتابة ذلك معنونـــا للقذافى شخصيا ، على أن يقوم بتسليمه له فورا . وهو مـــع حيويتـــه

وكفاءته وتقدم فكره إلا أن ولاءه الأعمى لقائده الثوري ، يحد من رؤياه بعدها حدثت جفوه وفتور بيننا لم يتطور لمرحلة المضايقات والاتهامات رغم طلبه تقارير عن نشاطاتي السياسية . استمر ذلك حتى مبادرة السادات للسلام . جاءني الصادق للإعراب عن أسفه لصدق التوقعات ، وأنهم في القيادة لم يضعوا له حساب . وسألني أن كانت لدى رغبة في لقاء القذافى ، فأجبته بأن لا داعي لذلك طالما رسائلي تصله . وأخبرني لاحقا بتأييد القذافي لوجهة النظر هذه . بعد ذلك كتبت بناء على طلبهم عن تصوري للفترة القادمة ، جاء فيه :

١. يجب الابتعاد عن استفزاز القيادة المصرية والاحتكاك بها فليس من مصلحة جميع الأطراف حدوث خصومات وحروب بالمنطقة .
٢. انهيار الاتحاد السوفيتي في المدى القريب لأسباب داخلية وأخرى خارجية ناتجة عن كفاءة وإيجابية النظام الرأسمالي الديمقراطي نسبيا .
٣. لتفوق النظام الرأسمالي على النظام الإسلامي غير المحدد المعالم ، يجب بذل الجهد الفكري والسياسي لإبراز نظام إسلامي حقيقي يستطيع الصمود أمام النظام الرأسمالي .
٤. التركيز على تأسيس نظام ليبي ديمقراطي تقدمي ونموذجي يمكنه قيادة الأمة ، مع العمل لأحداث تنميه شاملة ومستمرة وإيجاد صيغة للتعاملات والتكامل الاقتصادي بين الدول العربية بعيدا عن الخلافات السياسية القائمة .

الوحدة بالقوى

وكان ردهم على أفكاري تلك أن روجوا لمقولة أن التاريخ اثبت أن الوحدة لا تتم طواعية بل تتم بالقوة فقط ، واستندوا في تحليلهم للوحدة الألمانية والإيطالية ، وقبلها وحدة الأمة الإسلامية .. وخططوا لتحقيق ذلك .

وهكذا جاءت عملية غزو تشاد ، والتخطيط لغزو السودان ، حتى يتمكنوا من السيطرة على مياه النيل وبالتالي السيطرة على مصر . وهذا هو المفهوم السياسي والعسكري الذي أدي لمواجهة عسكرية مباشرة مع الولايات المتحدة بالأمريكية . ووجدت نفسي متفقا مع بروفيسور الشيشكلى بأن القيادة الليبية ستدفع الثمن غاليا فى تجاوزاتها السياسية والعسكرية وتدخلها في شئون الآخرين .

إلغاء التجارة

من الموضوعات التي ناقشناها مع الليبيين موضوع إلغاء مهنة التجارة ووصفها بالاستغلال ، حيث رأينا أنه أمر لا يجوز على الإطلاق طالما ورد في اباحتها نص قرآني صريح وهم يقولون بأن القرآن شريعة المجتمع . يمكن وضع ضوابط للتجارة ، أما المنع فلا . ومن ناحية اقتصادية عملية فإن مشروع الأسواق العامة لمحتكر وحيد للسلع والتجارة ، فيه من المحاذير والسلبيات على المواطن والدولة ما يعجل بنهايته وفشله .

وبالفعل رأينا وسمعنا عن السوق السوداء بإخراج السلع من الأسواق المركزية وسرقة الأسواق وإشعال النيران فيها . ومن الطرائف ما حدث بالنسبة للأحذية إذ تم خلطها مقاسات مختلفة ، شمالات مع بعض وكذلك يمينات ، وبيعها بأبخس الأثمان .

الديمقراطية

من أهم القضايا التي ناقشناها معهم – الصادق وزملائه – مسألة الديمقراطية والحريات ، وأن على النظام أن يهيئ الشعب الليبي للديمقراطية وذلك بإطلاق الحريات تدريجيا . وبما إنه كان لا يمكن رفض المبدأ صراحة ، فإنهم كانوا يضعون المحاذير ، كعدم أهلية المجتمع الليبي ... ولكن أخيرا كانت الحجة الدامغة : أننا شاركنا في

سفك الدماء ، وسيستغل أي قدر من الحرية للإطاحة بالنظام ، وستحدث تصفيات دموية لنا .

اغتيال القذافى

يقال أن النميرى في آخر عهده صرح بأنه أرسل خمسمائة من عناصر الأمن لليبيا لاغتيال القذافى . لكن المؤكد أن السودانيين في ليبيا تعرضوا للمساءلات والمضايقات . وكنت هناك في أوائل العام ١٩٨٤ في المراحل الأخيرة من إعدادي لرسالة ماجستير في علم الاقتصاد من جامعة قاريونس ، فوجدت أن من الأفضل التضحية بما بذلته من جهد بدلا عن احتمالات التعرض لمشاكل جدية مع أجهزة الأمن .

الاحتفال باغتيال السادات

الأمر الغريب أن تعم البهجة والاحتفالات أرجاء الجماهيرية بعد حادث اغتيال السادات ، ذلك الأمر الذي لم نجد له تفسيرا ، استنادا للمفاهيم السودانية عن الموت وحرمته .

تكلمت مع الزميل خليفه النوحى عن ظاهرة الاحتفال في ليبيا لموت السادات . ولا خلاف في أن السادات قام بإنجازات كبيرة على المستويين السياسي والعسكري ، ويمكن الاختلاف في نتائج مبادرته مع إسرائيل التي لايمكن الحكم عليها إلا في المدى البعيد ، لكن ظاهرة الابتهاج للاغتيال فلا . ولسنا نرضاه . حيث أن موت الفرد لا يقتصر على الجانب السياسي من حياته ، وكل من ماتوا لهم زوجات وأولاد وأهل وعشيرة ، يفتقدونهم ولا يغنيهم في فجيعتهم الخوض في مسائل خلافية حول الدين والسياسة . أما أولئك الذين أنفذوا عملية الاغتيال – حيث يرون السادات وصمة عار في جبين الأمة الإسلامية – هل حققوا ما أرادوا وأوقفوا العملية السلمية ؟؟

هل غيروا نظام الحكم أو سياسة البلد ؟؟
هل أقاموا الدولة الإسلامية ؟
لا نعتقد أنهم خدموا الإسلام والمسلمين . ولا نعتقد أنهم بحثـــوا أو استشاروا حتى يفتوا في هذه العملية الخلافية الخطيرة . وما نراه أنــهم سفكوا الدماء وضحوا بالنفس في سبيل هدف أقل مـــا يوصـــف أنـــه غامض وخلافي .

خالد الأسلامبولي

بعد أيام أخبرني زميل أنه بمجلة (كذا) نشر وصور منفذ عمليـــة الاغتيال ، وذكر أنه مشهور بالأسلامبولي ، كان وقع الخبر مؤلما .
الاسلامبولي ، أتمنى ألا يكون خالد أحمد شوقي . وهرعنا للبحـــث عن المجلة ، ولم أكن محتاجا للبحث عن الاسم فالصورة كانت كافيـــة برغم وجود اللحية الكثيفة .
يا إلهي ، ماذا فعلت يا صديقي ؟ من هداك لما فعلـــت ؟ أهلـــك ، والدتك وشقيقتك ماذا فعلت بهم ؟ إن ما يعرفونه عنـــك مـــن الفضـــل والخير أضعاف ما لمسته فيك .
وهكذا مضى خالد سريعا في إنجاز ما عاهد به نفسه في حين خذلـــه الأكاديميون والمفكرون الذين من واجبهم إنارة الطريق . لـــم يقدمـــوا الفهم القويم للإسلام والجهاد . ونسأل الله تعالي الغفـــور الرحيـــم أن يتولى القتلى من كلا الجانبين – الســـادات والإســـلامبولي – بعفـــوه ورضاه " وأن يجعلهم ممن قال فيهم :
" ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على ســـرر متقـــابلين "
الحجر ٤٧
ولو أنهم اتبعوا كتاب الله وسنة رسوله وصحيح الدين لمـــا وصـــل المسلمون لما هم عليه حاليا من هوان وفتن تتقاذفهم كاليم لا يـــدرون السبيل للخروج منها .

" إن هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم " سورة الإسراء : ٩
" أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين " سورة العنكبوت : ٢ – ٣

ونحسب أن أغلب أصحاب الفكر والعلم كانوا ولايزالوا في المعسكر الذي هزم عقائديا وفكريا ولاتزال أثر الصدمة مسيطرا على أعصابهم وأفكارهم ، وقد كفوا عن التفكير والكتابة . لابد من العودة للإسلام دين الله الحق حتى لا نقع في خندق الأوهام والأساطير مجددا. لابد من العودة إلى خندق المجاهدين الصحيح ، ليس بالقتال وحده وإنما بالدعوة أولا

قال تعالي : " ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة " سورة النحل ١٢٥ صدق الله العظيم .

الباب الثاني

الإنسان والكيد

تأسيس

تحد المكونات النفسية والعوامل الإجتماعية من حرية الفرد في سلوكه الاجتماعي ، ويتم تعريف هذه المعطيات من خلال الأنظمة الرمزية التي تربط الفرد بمجتمعه . وهذه المعطيات تخضع لقواعد الأنثربولوجيا الاجتماعية القائمة على توارث واكتساب التراث الحضاري والفلكلوري . ولهذه الأنظمة الرمزية قدرة التواصل عبر الأجيال ، وهي ممكنة الاستخدام للتعامل مع الغيبيات . كما أنها مكيفة للتعامل مع الخصائص المميزة لحضارتها ، حيث تأتى اللغة في مقدمة هذه النظم الرمزية وتليها العناصر الأنثروبولوجية المتجسدة في تراث الجماعة . وهكذا فإن عناصر العقل الجمعي ليست من صنع الأفراد وإنما هي تنشأ عن اجتماعهم . لذلك تقاس قيمة الفرد بقدرته على التعديل الإيجابي في النظم الرمزية للعقل الجمعي ، وفى المقابل تقاس صحوة الجماعة بقدرتها على تقبل هذه التعديلات وإدراك قيمة محدثيها .

كما أن الثورات تساعد على التدمير الكلى للمفاهيم المجتمعية السائدة والتي أصبحت مهجورة ، لكنها لا تزال رازحة تحت نير الأعراف والقوميات والتقاليد . وبدءاً من اللحظة التي أخذ الناس فيها بمناقشة فكرة كبرى ونقدها ، فإن زمن احتضارها قد ابتدأ . ولعل هذا ما حدث للامة العربية والإسلامية في الفترة الأخيرة ، حيث تعيش المجتمعات العربية الآن حالة شد عجيبة ، بين ماضيها السلفي وحاضرها المتطلع لنبذ الماضي ومسايرة الحياة العصرية . فهي تعيش على فتات الحضارة الغربية ، نتيجة الثورة العلمية – التقنية – في ظل نظام عالمي جديد أحادى القطب ، والتي أخذت طريقها سريعاً إلى مختلف المجتمعات ، بدعم رأسمالي ومؤسساتي كبير . وفى نفس الوقت فتحت إمكانات واسعة للتطور الثقافي الذي لم يكن يوماً في

حالة جمود تام ، فقد كانت خطوط تقدمه تساير الخـــط العـــام للتقـــدم الاجتماعي . إلا أن التغير جاء حاداً وفى شكل غزو ثقـــافي يعـــرض مجتمعاتنا وهويتنا للخطر ، إضافة لعدم وجود مفاهيم ثقافيـــــة جديـــدة نابعة من مجتمعنا ، الأمر الذي يحمل مفكرينا مسئوليات جسام .

وفى نفس الوقت فإن التطلع إلى القيم التقليدية وإلى ما أضيف إليـــها من قيم مستحدثة في ظل هذا الانفجار المعلوماتي يتطلب شـــيئاً مـــن التحوط والحذر . لأن نقل الصورة الإبداعيـــة يتـــم عـــبر التواصـــل التاريخي في الحياة الثقافية للشعوب والأمم ، وكذلك عن طريق إنتـــاج وانتقاء القيم المؤقتة ، مما يدفع إلى ضرورة معرفة العوامل الداخليـــة التي تضمن الهجرة الطويلة والممتدة لعناصر الثقافة الأساسية . أي أن علينا أن نعي مدي أهمية التواصل الثقـــافي وكيفيـــة الاســـتفادة مـــن معطيات الثقافة الناجحة ، وعدم الوقوع في مزالق النقل الخطرة ، مـن جراء الركض السريع خلف الأوهام والمستجدات الخادعة وعدم القدرة على الإمساك بشروط التواصل الحقيقي .

الفصل الأول

بيت الشباب

كان بيت الشباب في الخرطوم (٢) ، شرق سوق الخرطوم (٢)، يقع في أجمل منطقة سكنية بالخرطوم (لعل وضع بيت شباب في تلك المنطقة يعتبر كسباً كبير) قبل أن يستحوذ عليه العميد يوسف عبد الفتاح – وزير الشباب والرياضة – ويصيره مكاتب ، مما يعد خسارة لجمعية بيوت الشباب السودانية والعالمية ، ولو جاء القرار من أي جهة ير وزارة الشباب لكان أخف واقعاً . وكما ينسب لأحد المتحدثين عندما سئل عن ثورة الإنقاذ ، فقال : إنها مثل " كبش البطاحين .. جابوه للغنم يعشرهن ، قام رضعهن " .

بمجرد وصولي لبيت الشباب لأول مرة لاحظت وجود خلافات بين الإدارة وبعض أعضاء الجمعية النشطين ، وسبب الخلاف إصرار الأعضاء أن تتكون لجنة البيت بالانتخاب ، في حين تصر السلطة على تعيينها مباشرة ، وكان على رأس مجلس الإدارة عميد بالمعاش.

مساء ذات يوم دعانا كبار الأعضاء للاجتماع بالبيت في مشروع عريضة لرفعها ليوسف عبد الفتاح وزير الشباب ضد العميد المسؤول. بعد مناقشة المشاكل والأحداث وعند منتصف الليل تم إقرار بنود عريضة الشكوى . وفي انتظار لجنة الصياغة والطباعة دارت نقاشات جانبية بحديقة البيت فقلت لهم :

– لا أعرف عن المشاكل التي تم نقاشها شئ كثير ، إلا أن العجلة وعدم التريث واضحة للعيان .

دافع الرؤساء عن قرارهم ، وقالوا أنني أخاف الطرد من البيت لأنني أصبحت من ذوي الإقامة الدائمة .

الحمد لله أمامنا الليل ، فمن كان يتوسم في نفسه صلاحا فليستخر ، ومن كان يتهم نفسه بالعقل فليفكر . اختلط الجد بالهزل ودافعت :

– الجمعية ليست خارج إطار النظام السياسي والإداري للسودان ، والعسكر دائما لبعضهم ، بصرف النظر عن السلطة القائمة ، لذلك فإن شكوى عميد بالمعاش بالخدمة لن تأتي بخير .

من قبل أن يتبين الخيط الأبيض من الأسود من الفجر . كان قد مر على معظم النزلاء . أعلموني بأنهم أعادوا النظر في الأمر ولن يوقعوا على العريضة ، وهكذا قضى الأمر ، بعدها أصبحت مستشارا لمعظم نزلاء البيت ، حتى في مشاكلهم شديدة الحساسية . ومن هنا أتيحت لي فرصة نادرة لمعرفة مدي التحول والتغيرات في البيئة الاجتماعية للسودان ، ولذلك أسباب عديدة تطرقنا لجزء منها في تأسيسنا ، وسنوليها المزيد من الاهتمام في المستقبل القريب .

وحينما عصفت المشاكل بحياتي .. شأني شأن جزء كبير من أهل السودان ، وجدت في هذا المنزل (في الحي الراقي وسط الخرطوم) جنة حقيقية . كنت سعيداً في هذا المأوى – قليل التكاليف – وبدأت ضرباً في شوارع الخرطوم . جربت كل الممكنات وبعض المستحيلات . اكتسبت خبرة في كثير من المجالات ومعرفة بمختلف الفئات : مهنيين ، موظفين ، تجار ، عاملين ، طلبة ، أطباء ، بائعي خضار وحتى المشردين بأزقة العاصمة . وقد قاطعت المواصلات مدفوعة الأجر ، وكانت تحركاتي إما سيراً على الأقدام أو بطريقة الـ Auto Stop والتي تسمى في السودان : " يا عم " . ومن الأحداث الجديرة بالذكر أنني كنت في منطقة جنوب الخرطوم ، وركبت سيارة صالون ، بها عدد من ذوي اللحي – من جماعة الترابي ، أحدهم خرج على الترابي وكفره بسبب بعض فتاويه ، وكان ذكياً ، لبقاً فحاجهم فى تكفير الرجل . فتدخلت وقلت له أنني لست من جماعة الترابى ، لكن مسألة التكفير فى المسائل الخلافية القابلة للبحث أمر مرفوض ، وأن كثيرا مما نفترضه من البديهيات يحتاج إلى المزيد من الدراسة والبحث ، وضربت له الأمثلة .. وكما قال أحدهم أنها المرة

الأولي التى يجد فيها من يتصدى له . طلبت انزالي من سيارتهم فى أقرب الأماكن لمقصدى لكنهم اصروا على توصيلي الى حيث أريد !

وقد كنت حينها فى مشاوير خاصة بالنادى العلمى ، لحل مشكلة مياه الخرطوم متطوعا .

يستضيف بيت الشباب بعض المؤتمرات والفرق الرياضية وكان يقوم بدوره كمنتدى ثقافى للشباب ، مما يبعث الحيوية فيه ، وكنا شديدي الحرص على تحسين علاقتنا بالطباخين والعاملين المرافقين ، أما العمال المقيمين معنا فهم اصدقاؤنا وزملاؤنا . وكانت لنا ثلاث أيام سعيدة هي أيام إنعقاد مؤتمر المكفوفين وأصدقائهم ، وهكذا اتيحت لنا الفرصة للحديث معهم عن مشاكلهم ونوادرهم ، واستمعنا لمغنييهم، وفوق كل ذلك أكلنا معهم مدة الثلاث أيام ، وعرفنا صحة المثل " من يأكل مع العميان ... " لكن يوسف عبد الفتاح كان لنا بالمرصاد ، فبعد مؤتمر العميان لم ير البيت النور .

مشكلة مياه الشرب فى الخرطوم

كان قصير القائمة – الأستاذ محمد – يقيم معنا بالبيت عند حضوره للخرطوم . أعجبته حياتنا فقرر الإنتقال للخرطوم والإقامة الدائمة معنا. كان يحب الغناء والطرب والغزل ، وسميناه : القصير الشرير . دائما يدندن متغنيا .

أنا فى الحب حاتم

وفى الفلوس حازم

كان قصيرنا يحب العاملات فى المكاتب ، واكثر منهم سائقات السيارات .

أخبرني الأستاذ محمد أن الشيخ عبد الجليل النزير الكاروري تعرض فى خطبة الجمعة بمسجد جامعة الخرطوم لمشكلة مياة الشرب بالخرطوم . وكالعادة تتفاقم الأزمة فى موسم الفيضان لإرتفاع نسبة

الطمى فى مياه النيل ، وأن الشيخ إقترح عمل شبكة من الآيار الجوفية كحل دائم للمشكلة . وقد كانت عندي شبه دراسة منذ بداية التسعينيات، مودعة لدى المجلس القومي للبحوث لحل المشكلة : ذهبت للشيخ ، وهو ليس كالشيوخ التقليدين ، مستوى ذكائه مرتفع ، يهتم بالعلوم والبحوث والتجديد ، وفوق كل هذا مرنا وجادا .

أعطيته صورة من الدراسة وقام بتصويرها بأعداد كبيرة ، على أن تقام حلقة علمية ، وجهت الدعوة لكل من يهمه الأمر أو كان صاحب تخصص مرتبط بمواضيع مياه الشرب : مياه المدن ، مياه الخرطوم ، وزارة الصحة ، كليات الصحة ، كلية الهندسة جامعة الخرطوم ، كلية الجيولوجيا ... الخ

عقدت الجلسة العلمية بعد صلاة المغرب . المكان واسع وكل التجهيزات على أعلى مستوى بما فى ذلك طاولات محملة بالفواكه والمأكولات والمشروبات ، وهو العائد المادي الوحيد للمدعويين ، الذين يتكبدون مشاق الحضور مساءا . طلبوا منى عرض مختصر للمشروع وكل تفاصيله . وقبل أن أبدأ الشرح ، سأل أحدهم عن السيرة الذاتية للسيد المحاضر ، الذى يقف لإلقاء محاضرة فى مجال هندسي متخصص لأصحاب الشأن .

فأجبته :

لست أريد منكم شهادة ولا وظيفة أو توصية ، بل لدى موضوع محدد للعرض والنقاش ، ولا أهمية فى ذلك للسيرة الذاتية .

بعد إنتهاء الجلسة أخبرني أحد المهندسين بأن إجابتي هي أفضل رد، وإلا انحرف النقاش عن الموضوع .

وكان ملخص ماطرحته على السادة الحاضرين المتخصصين في هذا الأمر هو:

نظريـــــــا :

* قاع النيل الأزرق مفروش بطبقات رملية ، تؤدى إلـــى تصفيـــة المياه طبيعيا داخل الطبقات تحت السطح ، وهذا أمر معلوم للجميـــع ، وبدلا من سحب المياه العكرة التي لم تصفى بعد من أعلى الســـطح ، ينبغي سحب المياه من تحت السطح ، علما بأن مستوى المياه متساوى مع مياه المجرى أو بجواره وأن السحب بالطلمبات الدوارة التقليديــــة (طلمبات الطرد المركزي) زهيد التكاليف . يمكن إدخال المواســـير بأية مقاسات مطلوبة تحت السطح ســـواء كـــان داخـــل المجـــرى أو بجواره، سواء بالطريق التقليدية أو بإستعمال المياه المضغوطة بقـوة . وتفاصيل هذه الطريقة موضحة بالرسومات المرفقة بالبحث .

المحاذير :

* إحتمال تلوث المياه السطحية بمجرى النهر .
* خط سير حركة المياه ، خاصة فى موسم الفيضان ، من مجـــرى النيل لليابسة وليس العكس .
* يمكن إختيار مواقع خالية من الصرف الصحى الجوفى .
* عمل أبحاث ودراسات ميدانية تجريبية لتحديد مستوى التلوث .

قال أحدهم : إحتمال أن تكون كمية المياة المسحوبة قليلة .

رددت : إن إعادة الشحن **Recharge** فورية ، وحسب تجاربي إنه لا فرق يذكر بين السحب المباشر من مجـــرى النيـــل والســحب مـــن الماسورة تحت السطح – داخل المجري أو ملامسة له

وحدث أن أنزلنا ماسورة تحت سطح الماء بمقاس بوصـــة وكـــان السحب بطلمبة ٤ × ٤ وكان الضخ عاديا .

وحتى إذا كان صحيحا فيمكن علاج ذلك بإدخال ماسورة ٤ تحـــت السطح والسحب بطلمبة ٣ × ٣ . ولدينــــا بدائـــل لكـــل المحـــاذير والاحتمالات .

وعلق أحد كبار المهندسين :

ظللت مهتما بمشكلة مياه شرب الخرطوم لأكثر من خمسة عشر عاما ، وقدمت كذا وكذا من الإقتراحات والدراسات لكني منذ الآن متنازل عن كل ما قدمته من إقتراحات وأؤيد ما قاله الإبن . حتى إذا لم ننجح بالطريقة الطبيعية التى ذكرها فيمكن دعمها صناعيا ، كعمل حواجز خرسانية وما إليه . ورأى رصد ميزانية غير محدودة فورا لعمل التجارب .

وقال أنهم اتفقوا حوالى مليار جنيه سودانى على دراسات مياه بورتسودان وكان نصيبها الفشل .

وبطبيعة الحال لا يحب أهل المهنة دخول غير المختصين مجالهم ، لإفتراض أن هذه المسائل كان الواجب أن يقوموا بها بأنفسهم ، لكن قد تأتي التغيرات النوعية من آخرين ، وعليهم هم تحسين الأداء والعمل الروتيني ، وليس فى ذلك حرج . لكن للأسف كثيرا ما تكون معارضة الإصلاحات من أهل التخصص أنفسهم . وكان تعليق أحد المهندسين فى تفضيل هذه على الآبار الجوفية – التى لا تخلو أيضا من التلوث – أن تكلفه هذه تعادل ١٥% من تكلفة مياه الآبار الجوفية.

كان التأييد منطقيا وصدرت التوصيات :

* تبنى الفكرة رسميا .
* تحديد موقع لعمل التجارب .
* رصد الأموال للتجارب والدراسات .

اقترحت عليهم قيام شركة ، يكون للنادى العلمي أسهم فيها ، لاستخراج المياه وبيعها للهيئة الخاصة بمياه المدن . لكن لم يجد اقتراحي التأييد اللازم .

كان صاحبي القصير مندهشا ، ومن تعليقاته :

لو كنت جبهجيا لأعطوك مفاتيح الكريسيدا بعد المحاضرة مباشرة ، التوصيات حبر على ورق . وكأنما يفترض أن أقوم أنا بهذه الأعمال

على حسابى الخاص ، وفشلت حتى وساطات الجبهجية فـــى تحريـــك العمل . والقول ما قاله الشرير . هكذا مات المشروع غير الجبهجبي ، وضاعت مجهودات علمية كانت كفيلة إذا نجحـــت – بتوفـــير ميـــاه الشرب للقرى والمدن المجاورة للنيل وبـــأقل التكـــاليف . والتعليـــق متروك للقارئ الكريم ، وكان ذلك فى عام ١٩٩٧ .

طلاق رجعي

فى إحدى باصات المواصلات الداخلية بالعاصمة والتـــى قـــل أن نستعملها – صادفت سيدة تجلس الى جواري ، تبدو فى أواسط العمـــر ونالت قسطا من التعليم . لا أذكر بالظبط كيف بدأ الحديـــث بيننـــا ، لكنها سرعان ما اندفعت للخوض فى طرح مشاكلها الشخصية ، شكت من زوجها المتكبر ، المتعجرف المتغطرس الذى صبرت عليه طويـــلا قبل أن تقرر الخلاص منه نهائيا بالطلاق ، الذى اراحها منـــه ومـــن تصرفاته وأفكاره الشوهاء . قالت :

لم أندم عليه ، ولم يستنكر أحد تصرفي ، بل تعجبوا مـــن صـــبرى عليه طوال هذه السنين التى عشتها معه ؛ لكن لا بأس ، فأبنائى كبروا ولن يحتاجوا إلا إلى فلوسه .

طلبت منها أمثلة على ما سمعته من عجرفته وإزدرائه للآخريـــن . فأجابت :

إذا انكسر كوب زجاج لا يترك الأمر يعدى كما يفعل كل النـــاس ، بل يسأل عن المكان الذى كان فيه ، إذا كان على النافذة فأى نـــافذة ، وإذا كان فى النافذة الشمالية فيقول إن الهواء يأتي من الشمال فأطـــاح بضلفة النافذة وكسرت الكوب ، أما إذا وضعته فى الجنوبية فإن حركة الضلفة لن تؤدي إلى سقوط الكوب على الأرض وهكذا . وهذا فى كل شئ . وهو دائما محظوظ يحفظ كل شئ ويعرف كل شئ

هل كان يسئ معاملتك ؟

– أكثر من هذا إنه يعذبني بمحاضراته وإستجوابه
هل يعاملك بقسوة ؟ .
– لا .. إنه غير مؤذي ، فقط يكتفي بالتقصي عن الأحداث التى تجرى فى البيت ويعلق عليها .
إن زوجك يتمتع بذكاء غير عادي ، لا يكف دماغه عن العمل ، ولسوء حظه وشقائه أنه تزوجك إنت ، صغيرة العقل تكتسب التأييد من أمثالها .
لاذت هي بالصمت مندهشة بينما واصلت أنا الحديث :
أنه رجل متميز ، أفسدت عليه حياته وأبنائه .
تبادلنا الحديث عن ضرورة العمل على جمع شمل الأسرة ، والتعويض عما فات . وعند وصولى لمقصدي أخبرتها بأنني مغادر للباص ، إلا أنها أصرت ألا أفعل .
وقالت :
كل من شكوت له كان يؤيد ما ذهبت إليه إلا أنت ، لكن سمعت قبل زواجي منه أنه كان مبرزا فى دراسته قبل تركها لوفاة والده ، وإنصرافه للإشراف على أشقائه . سأرجعه من أجلك أيها الغريب ، ويمكنك التأكد من ذلك – وأعطتني الإسم والعنوان . ما الذى دعاني للشكوى لك عن مشاكلي الشخصية ؟ فليس من عادتي التحدث للأغراب . أتهتم بكل الناس ومشاكلهم هكذا ؟ ومن أين لك كل هذه المعرفة ؟
تحول الإندهاش من حالها إلى الإندهاش مني ، لعل هذا حال الإنسان المحظوظ الذي يجد الشخص المناسب فى الوقت المناسب . أخيرا أخبرتها أن عمل آبائي وجدودي هو الإهتمام بمشاكل الآخرين والعمل على حلها . وهذا يشبه ما قاله لي قصاب فى المرة الوحيدة التي نذهب له فيها ، وكان يركز على فسألته :
– أأشبه أحدا تعرفه ؟

لا ، لا أنت لا تشبه الناس .

– أنا إنسان عادي وأقل من العادي ، ملابسي عادية وحالى وظروفي أقل من العادي .

ليس ملابسك ، يمر على هنا كل أنواع الناس ، أنت لا تشبههم . كان منفعلا بغير ما سبب ، ولم يسبق ذلك نقاش ولا تعارف . ثم أضاف :

يوجد بك شئ غير عادي ، عيونك بها شئ غير عادي ، إنني أدرى بالناس وأعرفهم . أهلك ملوك أو حكام ، هذا واضح ، أنت لا تشبه الناس !!!

ودعته وانصرفت مندهشا من غرابة ما سمعت . حيث أنك وبدون سابق معرفة قد تجد من يستشعر فيك الكثير .

نعم .. أبى وجدودي حتى الحسين وعلى بن أبى طالب كانوا حكاما ومصلحين همهم حل مشاكل الآخرين وتذليل عقبات الحياة لهم ، والعمل على إسعادهم .

الرجوع من الشيوعية

من الشخصيات غير العادية التى تعرفت بها فى شوارع الخرطوم، الصديق جحا الذى كان يمشي ويتحدث بصوت عال – كما يفعل المخمور – ولم يتغير هذا الوضع طول مدة تعارفنا . والملفت للنظر فيه مستواه العالي فى إجادة اللغة العربية والإنجليزية . لم أكن أعرف عنه شئ غير أن إمكاناته العلمية رفيعة المستوى . أجبرنى على مجالسته لساعات طويلة وعلى مدى شهور إلا أنني لم أتمكن من إضافة أى معلومة عنه . وبعد سنوات من فراقنا تجمعت لدى معلومات عن صاحبي ؛ منها ما سمعته من شيوعي قديم رجع للاسلام – إسلام الورع والزهد – عندما سألناه عن سبب تخليه عن الشيوعية فقال ما معناه :

كنا نتدارس الفلسفة الماركسية الإلحادية ، ومعنا جحا ، خرج من الإجتماع ، وعند عودته سأله رئيس الجلسة عن سبب خروجه فأجاب جحا : ذهبت لتأدية الصلاة .

- صليت كيف ؟ ألست مقتنعا بما نقول ؟

إذا كان هذا الكلام صحيحا فمن الأفضل أن تعمل ما يبيض وجهك أمام ربك ولو قليلا ..!!!

وأخذ كلام جحا يدق فى رأسي حتى نفضت يدى من الماركسية وعدت للإسلام .

أما المهندس محجوب البدوى ، والد الصديق نادر ، فقد كان شيوعيا حتى آخر السبعينات – وفى مرة كنت مع الزميل نادر فى شركة خاصة بهم فى الخرطوم ، فسألته عن كثرة الآيات القرآنية المعلقة على الجدران ، وهل والده يعلم بذلك ؟ وإندهشت جدا عندما قال إن والده هو الذى أمر بها . وأخبرني عن قصة رجوع والده للإسلام وقال :

إنه ذهب للمشاركة فى مؤتمر هندسي بجدة ومعه صديق سوداني، وبعد إنتهاء المؤتمر طلب منه صديقه المرافقة للمدينة المنورة ، رفض – وبعد إلحاح على آلا يفترقا ، وافق على مرافقة زميله ولتكن سياحة. إلا أنه عند رؤيته المسجد النبوي أجهش بالبكاء !! كان رجوعا دينيا قويا ، فقد كنت أعرفه ، وكثيرا ما أزوره بمنزله في العمارات ، إلا أن رأيه فى كثير من السياسيين الإسلاميين لم يتغير وكان يقول عنهم : يحبون الحياة الناعمة والسيارات الفخمة والرحلات والسفر للخارج والاستمتاع بكل شئ مع لذة جمع الإسترليني والدولار .

ونذكر هنا ما قاله الأستاذ يس عمر الإمام فى لقائه مع التليفزيون السوداني عندما سأله مقدم البرنامج عن سبب رجوعه من الشيوعية والإلتحاق بالتيار الإسلامي . تحدث عن العمال والسلطة فى النظرية الماركسية الليبية ، وقارن ذلك بالسودان وأن السودان غير مؤهل

لإستيعاب مفاهيم الشيوعية . وتحدث عن السودان المسلم ، وقيام ثورة دينية قبل مائة عام فقط " مشيرا بذلك للمهدية " ، وأنه لكي تستولى على السلطة فى بلد كالسودان ، ينبغي أن تكون صاحب دعوة إسلامية.

وهكذا فإن سبب أوبته " السبب سياسي وليس ديني " كما قال بالنص على ما أذكر .

وفيما طرحناه مؤشر لفكر بعض الإسلاميين فى شأن قيام الثورة الدينية وإستراتيجياتها والإستيلاء على الحكم .

فقد يكون من المفيد عمل الدراسات والتحليلات السياسية والاجتماعية والسيكولوجية ... عن الشيوعيين السابقين وخاصة من يلتحق بالركب الإسلامي ، السياسي منه أو الصوفى .

الفصل الثاني

(اتق شر من أحسنت إليه)

مثل موروث يستهدف محاولة مسح عمل الخير من الذاكرة وذلـــك للمصلحة الفردية المباشرة أو تغيير ملامح الذاكرة الشـــعبية بغــرض تأكيد الآنا وحب الذات ، وكل تلك الصفات التى لا تضـــع حســابات للاخر .

وأذكر أننا دخلنا فى نقاشات عديدة عن هذا المثل ، عن قائله وعــن انه يدعو للسلبية وكراهية البشر .. والعدوانية والإنعزالية .

بما أن الإنسان أقرب للشر بطبعه ، فإن ذلـــك يســتوجب الحــذر والإحتياط فى كل تعاملاتنا ، إلا أن عمل الخير غير الممســـوح مــن الذاكرة يضعف هذه الاحتياطات من جانبين :

ا – يكتشف – من تحسن اليه – وجود ثغرة فى دفاعاتك الوقائيـــة مثل : الرقة ، العاطفة والحنان وقد يسعى لاختراقها إذ عن له ذلك .

ب– قد تتصور أنت أنه مثلك ، ذاكرا لما أوليتـــه مـــن إحســان ، فتطمئن إليه بعض الشئ . وهذا خطأ قد يكـــون خطــيرا إذا دعمــه الجانب الأول .

إن التصالح مع النفس والتعامل مع الآخرين من مفهوم أن تركيبـــة الإنسان أقرب للخير كما ذكرنا أعلاه ، له إيجابيات :

داخلــيا : العزم وبذل الجهد لمحاربة هذه النقيصة كجزء من الجهاد الأكبر .

خارجيا : أ – الاحتياط الدائم .

ب – مساعدة من يحاول العمل والمجاهدة للتغلب على نقائصه .

جـ– بعض العذر له للمشاركة فى العلة والنقيصة .

إن عمل الخير ليس غريبا عن السودانيين وجزيرتهم الاجتماعيـــة ، إذ أن السودان يشبه الجزيرة المنعزلة – كما ذكر الخواجه ببغـــداد – فى هذا العالم . التركيبة الإجتماعية ، المميزات الشـــخصية ، النظـــام القبلى والعشائري ، وذلك حتى بداية عهد النمـــيري . ولعـــل ريـــاح التغيير الطبيعية والصناعية التى هبت على المجتمع السوداني عصفـت باستقراره الاجتماعي ، وكمثال على ذلك نشير إلى العلاقات الزوجيـــة خاصة فى الأرياف .

تكاد تكون كل قبيلة الرجال على قلب واحد وكذلك قبيلة النســـاء – وهكذا ليس بمستغرب أن يتم عقد قران ٧٠ – ٨٠ زيجـــة فـــى زواج جماعي واحد فى قرية صغيرة . كما أنه حدث فعـــلا القضـــاء علـــى العزوبية للرجال والعنوسة للنساء بنسبة ١٠٠ % .

اجتمعت عوامل عديدة لتحقيق حياة زوجية مســـتقرة ، ولا تقـــول سعيدة منها :

الإجماع على اضطهاد المرأة وسلب حقوقها وإنسانيتها .

للرجال متنفسات شرعية للعلاقات الاجتماعية والجنسية خارج بيت الزوجية.

وجود قيادات قوية لفرض الاستقرار والحقوق والنظـــام والعمـــل حسب الأعراف والتقاليد السادة .

وهكذا تم التوازن الاجتماعي حسب المعطيات آنذاك .

فى عهد النميرى (١٩٦٩ – ١٩٨٥) ومـــاتلاه حدثـــت تغـــيرات كبرى فى التعليم – توزيع الثروة – الإدارة – التنمية .

ومن ذلك :

أ – إنتشار التعليم المنظم للرجال والنساء :

ب – أدت التنمية إلى مفاهيم وقيم جديدة فـــى الملكيـــة الخاصـــة والإستهلاك وقيمة رأس المال ونفوذه ، بالإضافة إلى التبـــاين فـــى

توزيع الثروة ، وقد يكون تباينا مخلا للتوازن فى معظـــم الأحيـــان ، ومازال معدل الخلل فى إزدياد .

جــ – توجيه ضربة مباشرة للنـــظام الإداري والقضـــائي القبلـــي الموروث " حل الإدارة الأهلية " . كل ذلك بتخلخل القـــوى التقليديـــة المشرفة على النظام الإجتماعي والإستقرار والأمن . وجـــد الأفـــراد أنفسهم ، بدون إعداد ولا تدرج ، فى مواجهة مشاكل حياتية أبعد مـــا يكونوا عن فهمهما والتعامل معها ، وافتقدوا رجالا مؤهليـــن مدربيـــن ومنظمين . وألقى ذلك بظلال كثيفة على المؤسسة الزوجية يتبين فى :

(ا) انخفاض معدلات الزواج .

(٢) ارتفاع معدلات الطلاق .

واعرف من تسبب فى خراب بيت إبنته ، ومواجهتها له بأن زوجها لم يخطئ لكنها هى وأبوها وأخوتها إعتدوا عليه .

وما كان لذلك أن يحدث فى الماضى :

* لا يجروء مثل هذا الأب على تلك التصرفات فى وجود رعايـــة وإدارة قوية فى المجتمع – الشيوخ – وإلا سيواجه بعنـــف لا يثبـــت أمامه .

* المرأة دائما على خطأ ، عرفوا بالتجارب والخبرة أن مصلحـــة المرأة العليا تقتضي ذلك .

* لولا جهل وعنت مثل هذا الأب لتدبر الأمر بروية حفاظا علـــى مصلحة إبنته على أقل تقدير .

حدثت الزوجة عن الزوج وأهميته وعدم أهميه الأخوان ، ووضـــع الأبناء ، واحتمالات تدخلهم لاحقا لمصلحة الأصلح من الأبويـــن ، وأن لا تسعى للطلاق إلا إذا كان يتهددها خطر جنائي حقيقـــي مـــن قبـــل الزوج . وله أن يتخلى عنها إذا تكالبت عليه مع أهلها عدائيا .

أما بعد الطلاق خاصة الثالثة ، مع وجود أبناء :

* فليس من المصلحة السعى للإضرار بالزواج السابق .

* نسعى لاستقراره في عمله ليوفر نفقة أبنائه .

* أن تكون العلاقة مستمرة بقدر ما يخدم مصلحة الأبناء وبقدر ما يمكنه التشاور مع والدتهم .

* ليس لنا مصلحة فى إثارة مشاكل مع الطليق وأسرته .

وهكذا يمكن تجاوز مشاكل شديدة التعقيد ، وذلك لمصلحة الأطفال على الأقل .

الفصل الثالث

وثيقة حقوق الطفل

وثيقة الطفل التى تم التصديق عليها فى هيئة الأمم المتحدة عام ١٩٥٩ تنص على ما يلى :

ا – ينبغي تأمين ظروف النمو الصحي والطبيعي للطفل ، سواء كان هذا النمو عقليا ، أخلاقيا أو اجتماعيا . وأن يتحقق له هذا النمو فى جو من الحرية والاحترام لكرامته الشخصية .

ب– ينبغي أن نضمن للطفل حقه فى الإستفادة من خبرات التأمين الاجتماعي . وللطفل حتى قبل ميلاده كذلك الحق فى أن يشب وينمو فى ظروف صحية مناسبة . وأن له الحق فى التغذية المناسبة والسكن المناسب ، وفى الرعاية الطبية المجانية .

جـ– للطفل الحق فى أن يتلقى تربية تزوده بالحد الأدنى من الثقافة والتعليم وتمكنه كذلك من تنمية قدراته وإستقلاليته فى التفكير ، وتسمح له أن يصبح عضوا نافعا فى مجتمعه . ومثل هذا التعليم ينبغي أن يكون مجانيا .

د ـ للطفل فى كل الأحوال الأفضلية للحصول على الحماية والمساعدة .

هـ– يجب حماية الطفل من كل أشكال الإهمال والاستغلال والانتهاك ، ولا يسمح فى أى ظرف من الظروف أن يتم تشغيل الطفل أو استخدامه بهدف الربح المادي إذا كان هذا العمل ضارا بصحته أو بتعليمه أو يعرقل نموه . (عن BALCEREK 1998) .

يمكن القول أن عالم الراشدين لم يقبل بشكل كاف ، ولم يعترف أن الطفل إنسان له حقوق محددة . وأن مشكلة الأطفال مازالت تبحث من وجهه نظر حاجات الآباء ، ويعامل الطفل أحيانا على أنه " دميتهم الصغيرة " أو أنه دعم لهم ، أو مجرد يد عاملة ، على أنه ضمان

لتأمين حياة أبويه فى الكبر . ومازال الكبار يتناسون فى أغلب الأحيان أن للطفل الحق فى أن يعيش طفولته وأن يتمتع بها . وأن له الحق أن يكون محبوبا كما هو وليس كما يريد الآخرون أن يكون .

أصدقائي الصغار

من النادر قيام علاقات صداقة حقيقية بين عالم الكبار والصغار . غير أنني ومازلت أتمتع بصداقات قوية مع الأطفال .

كانت لى علاقات عديدة مع أبناء وبنات بعض الأهل والأصدقاء والجيران ، وقد كنا نقضي معظم الوقت – بعد ساعات العمل والدراسة – تحت ظلال الأشجار فى اللعب والضحك والسمر . وبرغم فارق السن كنا نتأرجح بالمرجيحات على الأشجار ، ونلعب الحبل – فردي ، ثنائي وثلاثي – وقد اكتسبت من ذلك خبرة ومراس عال . كنا نتناول الوجبات شراكة معهم ، عينا ونقدا . كنت أحبهم ، أسعد أوقاتي معهم ، وهم يبادلونني نفس الشعور .

وكثيرا ما يبدي بعض أصدقائي الصغار رغبتهم فى إحضار حاجياتهم والتحول للسكن الدائم معى ، ودائما يجد الأهل مشقة فى إرجاع أبنائهم ، وإقناعهم بالعودة للمنزل .

بناء صداقة مع الأطفال يستوجب الصدق الكامل فى الأقوال والأفعال والمشاعر والاهتمام بالطفل واهتماماته ، وأنه ليس من أدوات الترفيه . ينظر بعض الآباء للعب الأطفال وهواياتهم على أنها مضيعة للوقت ، وممارستها لا تكون إلا على حساب العمل الجاد والتحصيل الأكاديمي . ولهذا الإسلوب التربوي سلبيات ، كما وأن ممارسة الأطفال والشباب لهوايتهم خلال ما يسمى بالوقت الحر ، أو أوقات الفراغ ، وحسب تصنيف دومازيه **DUMAZEDIER** تؤدي إلى ثلاث تأثيرات هامة : الإسترخاء – التسلية – تنمية الشخصية

أولا : تخلصهم من التعب وتعيد إليهم توازنهم الجسدي والنفسي الذي قد يختل نتيجة لتوترات الحياة .

ثانيا : تبعدهم عن الملل والروتين بما تتضمنه من عناصر التعبير والمتعة .

ثالثا : تنمي شخصياتهم وتحقق لهم الإشباع الذاتى الذى لا تحققه الحياة التى يغلب عليها طابع الاحباط والسكون والجدية .

ولأهمية الوقت الحر فى النمو الجسدي والاجتماعي والنفسي للأطفال ، فقد أصبح علما مهما من فروع علم الإجتماع . كما أن بعض الباحثين توصلوا إلى أن الأطفال والشباب الذين لا تتوفر لهم فرصا لقضاء الوقت الحر ، يمكن أن يكونوا خطرا على المجتمع . لأنهم أكثر عرضه للإنحراف ، والإنضمام للعصابات ، وتعاطي المخدرات واللجوء للعنف .

كنت أكثر إلتصاقا بالأطفال ، معرفة برغباتهم ، مشاعرهم ومشاكلهم . حيث كانوا يخبرونني بكل شئ حتى ما يخفونه عن أهاليهم ، منها المشاكل المزعجة التى نعالجها بتكتم . وبنفس إهتمامي بهم كانوا يهتمون بأمري كثيرا . يتابعون كل أوضاعي ، حتى قبل زواجي ، كانوا يدركون وبقدر أعمارهم ضرورة الزواج ، فمنهم من تطوع للخطوبة لى . وإن كانت الخطيبة تعرف بأم فلان . وكانت الطفلة نازك طرفا فى ذلك :

بالقرب منا تسكن شابة جميلة ، ترتدي ملابس جذابة ملفتة للنظر خاصة لنازك التى كانت كثيرا ما تعلق على ملابسها ، ثم تطور تعليقها لشخصها وجمالها ، ومن شدة إعجابها ، جعلتها خطيبتي . شرحت لنازك بأن المرأة متزوجة ولا يمكن خطوبة امرأة متزوجة . إلا أنها لم تهتم بذلك وأصبح شغلها الشاغل أمر الخطيبة وأخبارها . فجأة استدركت أنى لا أزور خطيبتي ، واستمرت على هذا الوضع أياما .

ذات يوم جاءتني وطلبت مني زيارة الخطيبة الآن . حاولت إثنائـــها عن ذلك بحجة أنني غير مستعد ، على أن نقوم بذلـــك يـــوم أخـــر . وكنت آمل أن تنسى طلبها ، لكنها فى الوقت المحدد جاءت فى أبـــدع ما يكون ، وأمرتني بالذهاب معها للخطيبة . وحـــــاولت التســـويف ، لكنها حسمت الأمر .

- ألنت تكذب !!

ولم يكن بد من القيام بتلك الزيارة المحرجة . كما هو متوقـــع فقـــد اندهشت الشابة لهذه الزيارة الغريبة . أكرمت وفادتنا . أخبرتها بـــأن نازك صاحبة الفكرة ، فسألتها :

- أتعرفينني يا نازك .
- نعم أعرفك
- بتعرفي اسمي ؟
- اسمك ... اسمك ... اسمك : خطيبة كمال (ولـــم تكـــن نـــازك تعرف لها إسما غير هذه الصفة) .
- لكنى متزوجة يا نازك .

وليس لإجابتها أى أهمية عند نازك . التى زارت أخـــيرا خطيبـــة صديقها .

عن مدارك الأطفال

يخطئ معظم الآباء بظنهم معرفتهم الجيدة لأبنائهم ، قـــد يكـــون العكس ، فإن الأطفال يتمتعون بموهبة أو حاسة لمعرفة من يكبرونـــهم، وقد يخدع الكبير نظيره ، لكنه لا يستطيع ذلك مع الأطفال . قد يكـــون ذلك لخطأ الكبير المتلون فى تقييمه للصغار ، بإفتراض عدم قدرتـــهم على التمييز ، مما يجعله يتحلل من بعض ضوابطه التى يمارسها فـــى تعامله مع الكبار ، ويكون حكمهم بالإجماع على مثل هـــذا الشـــخص

وبموضوعية قد تفوت على الآخرين وبنفس القدر تقييمهم لمن يحبهم حقيقة ، ومدى مصداقيته .

الأخطار المحدقة بالطفل

أ- التليفزيون وتأثيره :

إن التلفاز من أهم الأشياء التى بها تأثير مباشر فى تكوين الطفل ، إضافة لنظام التربية والبيئة الاجتماعية المحيطة . لذلك نقف وقفة سريعة عند تأثيره السلبي على الأطفال ، فى ظل ما نواجهه من غزو ثقافي وإعلامي أجنبي ، الذي هو أخطر نتائج النظام العالمي الحالي . ومن الطبيعى أن يكون له أبعاد جديدة تؤثر فى ثقافتنا العربية والبنية الاجتماعية . مع هذا التطور السريع والإنفتاح الاقتصادي الذى تقوم به الدول العربية ، أصبح كل منزل وكل أسرة تمتلك جهازا للتلفزيون، وفى حالات عديدة أكثر من واحد . وأخيرا دخلت السباق أجهزة الاستقبال الفضائي الذي يتيح للأسرة التمتع بكل القنوات العالمية ، الأمر الذى قد يكون خطرا داهما على تربية الأطفال ونشأتهم .

وبرغم هذه الخطورة إلا أن هناك غيابا إعلاميا عربيا موجها للاهتمام بالطفل . ومن المفيد هنا أن نشير إلى دراسة إجراها المجلس العربي للطفولة والتنمية والتى جاء فيها :

أن هناك تفاوتا بين الدول العربية التى تقوم بإنتاج برامج تليفزيونية للأطفال كما أظهرت الدراسة أيضا :

أولا : أن معظم البرامج الموجهة للأطفال فى التلفزيونات العربية والأجنبية ، وبشكل خاص الرسوم المتحركة التى إعتبرتها معظم الدراسات ، الأكثر جاذبية للأطفال.

ثانيا : ان البرامج المحلية بغالبيتها الساحقة ، لم تعتمد القصة والحكاية أو المسلسل .

ثالثا : ليس هناك تبادل لبرامج الأطفال بين الدول العربية ، ولعل السبب يعود إلى أن برامج الأطفال فى غالبيتها ذات صيغة مناسبة ومحليه ، بلهجتها وأشخاصها .

وبشكل موجز يمكن تحذيد التأثيرات السلبية للمشاهدة التليفزيونية المستمرة للطفل فى الآتى :

١ / إن حاجات الأطفال الصغار مختلفة ، فنمو الطفل يتطلب فرصا لتحقيق علاقات أسرية أساسية ، وبذلك يمكنهم فهم أنفسهم ، والمشاهدة التليفزيونية – المفرطة – تقلل فى هذه الفرص .

٢ / تساعد التجربة التليفزيونية على تبعية الأطفال ، فى حين يحتاجون إلى تنمية قدراتهم على التوجيه الذاتي حتى يتمكنوا من تحرير أنفسهم .

٣ / تأثيرات الانكماش الواسع فى الوقت الحر بين جيل الأطفال الذين شبوا مع التليفزيون ، فإن عدم فهم أهمية وقت الفراغ فى حياة الطفل سيفضي به إلى البحث عن علاقات الاعتماد المتزايد ، أى حالة اعتماد داخلي صامت ، فى الوقت الذى تمتلئ فيه حياته بالبرامج التى ينسج خيوطها الكبار على الشاشة .

٤ / يحتاج الأطفال إلى إكتشاف نواحي القوة والضعف الخاصة بهم لتحقيق رغباتهم كراشدين فى العمل واللعب على حد سواء . لكن المشاهدة التليفزيونية لا تفضي إلى هذه الإكتشافات . فهي فى الواقع تحد من إندماج الأطفال فى تلك الأنشطة الواقعية التى قد تتيح لقدراتهم فرصة حقيقية للإختيار .

ب- العنف ضد الطفل :

كثيرا ما يتعرض الطفل للعنف والإضطهاد المباشر من المجتمـــع ، لكنهم فى إطار الأسرة أكثر الفئات تعرضا للعنف الموجه من الأبوين. وفى مجتمعاتنا الشرقية يعتبر عنف الأباء السمة العامة ، ويفسر علـــى أنه شكل من اشكال التربية تهدف إلى تهذيب الطفل ومنعه من إرتكاب الأخطاء حتى يكون مستقبلا صورة طبق الأصل من والديــه . وهــذا مجال بحث آخر . والجدير بالذكر أنه غالبا ما يتعرض الطفل للعنــف بأخطاء من الوالدين وحسب حالتهم النفسية فى غياب التوعية والحـوار مع الطفل . ومما ذكره علماء النفس عن حالة الوالدين الذين يمارسون الاضطهاد ضد أبنائهم :

١- وجود إضطرابات عصبية مختلفة مثـــل : إنخفـــاض الضبـــط الانفعالي ، اضطرابات الشخصية المعادي للمجتمع ، إضافة لمحدودية الذخيرة اللفظية وربطها بفاعليات التفكير ، الشئ الذى يحد من قدرتهم على التواصل الفعال مع الطفل ، ويتسمون كذلـــك بالفـــهم الســـطحي لسلوك أطفالهم مع نقص القدرة على اتبـــــاع اســـتراتيجيات مناســبة للتعامل مع الطفل (Starowic 7, 1992)

٢- عادة لا يرون الصفات الإيجابية للطفـــل ، ويركـــزون علـــى صفاته السلبية . إضافة للتوقعات غير المناسبة التى يرجوها الأهل من أطفالهم مما يدل على ضحالة معرفتهم فيما يخص موضـــوع تطـــور الطفل ونموه ، وعلى إنخفاض مهاراتهم التربوية .

ومن العوامل المؤثرة فى العنف ضد الطفل :

أ - سهولة دفع الأهل إلى الإستجابة العنيفة .

ب- القناعة المتصلبة حول ضرورة إبقاء السلطة المطلقة للأهــــل على أبنائهم.

جـــ- شدة الصراعات الزوجية والأسرية .

د - قسوة عوامل الضغط الخارجي .

والجمع التراكمي لهذه الظروف يشير إلى احتمال حـــدوث أشـــكال متطرفة من العقاب البدني ضد الطفل .

جـــ- الاستغلال الجنسي للأطفال :

من أسوأ أشكال الاضطهاد التى تمارس بحق للطفـــل مـــا يعـــرف بالاستغلال الجنسي للطفل Child sexal abuse ، والذي يمكن تعريفـــه كما عرفته منظمة الصحة العالمية أنه " استخدام الطفل للحصول علـــى اللذة الجنسية للراشدين " . كما أنه يحدد بأنه " دفع الطفل إلى فعاليـــات جنسية لا يعي طبيعتها بوضوح وهـــى تنتـــهك القواعـــد الأخلاقيـــة المرتبطة بالأدوار المجتمعية الطبيعية " .

وبرغم انتشار هذه الظاهرة التى يتعرض لـــها عـــدد كبـــير مـــن الأطفال، إلا أن الإهتمام بها لم يأخذ حجما يضاهي فداحة تأثيرها فـــى نفسية الطفل . ومن الواضح أن هناك إزدواجا فى ردود أفعال الآبـــاء فى ذلك . فمثلا إذا تم التحرش ببنت بالغة يكون رد الفعل أعنف مـــن حالة الطفل . وهذا يعكس ضحالة التفكير والوعي وإدراك سيكولوجية الأطفال ، حيث أن الطفل وإن تناسي الحادثة إلا أن التأثير يتضح فـــى أفعاله ومواقفه المستقبلية . ونسبة للستار الأبوي على حالات التحـــوش الجنسي بأبنائهم ولأسباب أخرى لا توجد إحصائيات أو سجلات موثقة فى هذا الجانب . أما فيما يخص الأبحاث المجراة فى البلدان العربيـــة فإنها – مع قلتها – تدل بوضوح على وجود مشكلة معاملـــة الأطفـــال والعدوان الجسدي والجنسي ضدهم فى البيئة العربية ، حيث دلت على أن الصبيان يقعون على الأغلب ضحايا الاستغلال الجنسي مـــن قبـــل راشدين غرباء ، وأكبر منهم سنا ، أكثر مما تتعرض البنات لذلـــك ، وأن الصبي الذي يتعرض لمثل هذه التجربة ، لا يكون عادة الضحيـــة الوحيدة للمعتدي حيث هنالك الكثير من الحوادث التى لم يبلـــغ عنـــها وتظل طي الكتمان . وعليه فإن تقدير مدى انتشار هذه الظاهرة يعتـــبر أمرا منتهى الصعوبة .

ومن نتائج الاستغلال الجنسي والعنف ضد الأطفال ، بالإضافة للكدمات والإصابات البدنية فهناك آثار آجلة للعدوان منها :

* آثار انفعالية ومعرفية واجتماعية ، تظهر لدى عدد غير قليل من ضحايا العنف .

* حالات من القلق والاكتئاب وضعف القدرة على الضبط الإنفعالي.

* عادة ما يكون هؤلاء الأفراد فى علاقاتهم بالآخرين قليلو الثقة ، وغالبا ما يتصرفون بشكل عدواني مع أقرانهم ومع أسرهم فى حياتهم الراشدة .

الباب الثالث

الفكرة وأحكام الردة

تأسيس

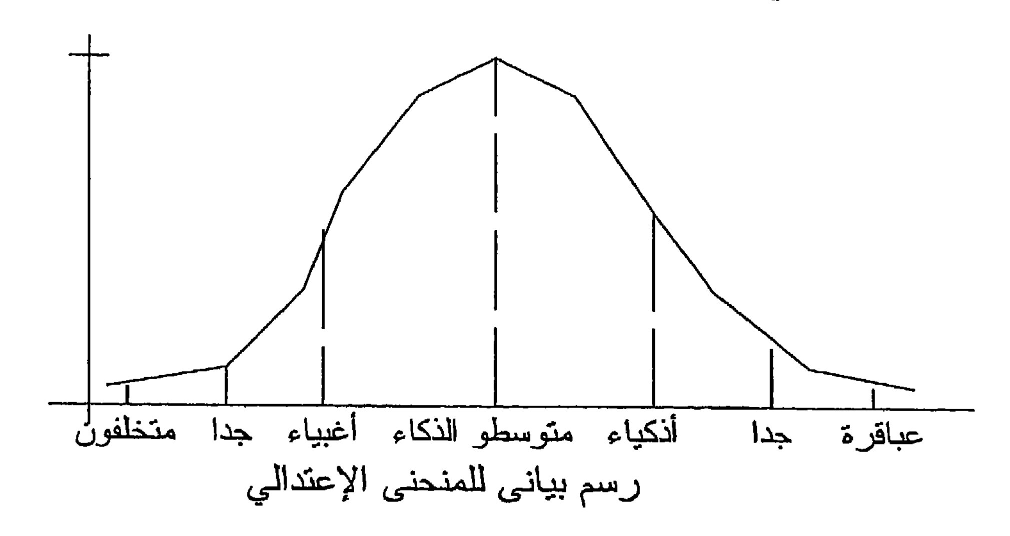
يمكن القول بأن المحصلة العملية أو المردود الفعلي للقوى العقلية تتأثر بالعوامل الخارجية بطريقة مباشرة . فكم من عقليات متميزة أهدرت فى الدول والمجتمعات المختلفة . وما كان لعباقرة أوربا تحقيق شئ يذكر لو أنهم عاشوا فى مجاهل أفريقيا مثلا .

لكن وعلى كل حال فإن الجوهرة أو جذوة النار التى خصصت لكل فرد تبقى حافظة لكينونتها : تضعف وتخبو بالإهمال ، تنمو وتشتعل بالتعهد والرعاية .

حتى نهايات القرن العشرين يعتبر الذكاء مثله والموروثات والمواهب كالجمال ، اللون ، القوى البدنية ... الخ مع مالها من آثار قوية مباشرة فى حياة الناس وعلاقتهم ومكاسبهم و ... الخ ، ليس للإنسان يد فيها وليست من كسبه ولا من كسب أسلافه ولا يفترض أن تعد مما يفخر به الأفراد .

التوزيع الطبيعي للذكاء

بإفتراض أن توزيع الذكاء فى المجتمع الإنساني يخضع للتوزيع الطبيعي الإحصائي – وهو أقرب ما يكون للواقع .



رسم بيانى للمنحنى الإعتدالي

من هذا الرسم البياني يمكن استنتاج أن ٥ % من أفـــراد المجتمـــع دون الوسط ، ٥ % منهم فوق الوســـط ، ١ر % أكـــثر مـــن ٨٠ % ذكاء، ١ر % أقل من ٢٠ % ذكاء . وبما أن متوسطي الذكاء – نســبة ٩٠ % – يشكلون الأكثرية المطلقة من المجتمـــع الإنســاني ، ممـــا يؤهلهم لصبغ الحياة بطابعهم الخاص ، وتشكيل المجتمعـــات حســبما يخدم مصالحهم وأهدافهم ، فهم أكثرية منسجمة في مواجهـــة أقليـــات على طرفي نقيض منهم : كبار المفكريـــن ، الفلاســفة ، العلمـــاء ، المصلحين ، الصوفية .

ان ما يميز هؤلاء الأقليات أن تطلعاتهم وجهودهم ليســت لإســعاد أنفسهم ، إنما لإقتحام المجهول ، ريادة المسالك وتعبيدها . وكم يلاقــي هؤلاء من جهد وعناء وتضحيات لتطوير الحياة وإصلاحـــها ، ممـــا يخدم مصالح الغالبية – الـــ ٩٠ % متوسطو الذكاء .

العلاقات بين الفئات :

يرى متوسطو الذكاء ذلك التشابه وتلك الصفـــات المشـــتركة بيـــن طرفي النقيض – الشرائح العليا والدنيا . ومن تلك الصفات :

عدم الاهتمام بالمصالح الشخصية

عدم التكالب والمنافسة فيما هم فيه

عدم الاهتمام بالمظهر العام والسلوك الاجتماعي العام

قد لا تستطيع الشرائح الدنيا ، ولا نـــدرك المصلحـــة فـــي هـــذه الاهتمامات .

أما الشرائح الأعلى فلإنها مختلفة ومتميزة عن القطيع ، فقيمها ذاتية وليست مكتسبة ، ولا تزيدها هذه الشكليات ولا تنقصها ولا يهمها تقييم الآخرين .

ملاحظات :

* يستفيد الأدنى من الأعلى ويرتاح معه ، والعكس .
* قد يؤدي الشعور بالدونية إلى إشعال نار الغيرة والحسد .

* قد يؤدي ذلك إلى المكايدات ، التجريح ومحاولة نفي صفة العلوية .
* قد يتناسب رهافة الشعور والإحساس طرديا مع مستوى الذكاء .
* قد تغطى التربية والسلوك الحسن والنفس الراضية والسعى لمحاربة السلبيات الشخصية بعض معيبات تدني الدرجات .
* قد لا يدرك الأدنى ما يسببه للأعلى من ألم وضجر .
* على الأعلى الاحتمال برضى ومعرفة وتسامح مكتفيا بنصيبه من العلوية .
* ما يراه الأعلى بداهة ويدركه ببساطة قد يستعصى على الآخرين وقد يرفضونه .

ما بين مستوى الذكاء ومستوى السعادة :

مما تقدم يمكن القول بأن لمتوسط الذكاء فرصا أكبر لتحقيق مستويات أعلى من السعادة مقارنة بالشرائح العليا والدنيا . في حين تسعى غالبية المجتمع – متوسطو الذكاء – لتحقيق مستوى سعادة مرتفع متوسلة بطموحات مشروعة وسلوك عقلاني مقبول – يفشل الآخرون لأسباب منها :

* لعدم إهتمام بمصالحهم وموجبات سعادتهم .
* فشل في تقييم واقع المجتمع وتعامله المادي والدوني .
* تفاعلات المجتمع السلبية مع الشرائح المحسودة والمنبوذة باعتبارها نشاز ، وما ينالهم من خصومات من ومن مكايدات ومنغصات .

محمود وقضايا الشرق الأوسط

محمود محمد طه ، من الأساتذة المرموقين في جامعة قاريونس : البروفسير في القانون الدولي ، السوري الجنسية ، وزير الخارجية الأسبق في حكومة شقيقه الششكلي . وهذه المعلومات من تلميذه

النجيب الذي قام بمهمة التعارف بيننا ، أبو عبيده الطويل ، والذي كان يغضب لهذا الاسم حتى ذكرناه بأن الله سبحانه وتعالي قد امتن علـــى أحد عباده بأن زاده بسطة في العلم والجسم .

بروفيسور الششكلى

رجل كباره ، واسع الإطلاع والاهتمام بالشئون السياسية والفكريـة، شجاع ، حسن العشرة والمعاملة خاصة مع السودانيين الذين له عندهـم مودة ومعزة خاصة .

يروى أنه ذهب من بنغازي إلى طرابلس للشماتة فيمن أطاح بنظـام حكمهم ، وقد إلتجأ إلى ليبيا بعد أن دارت عليه الدائرة ، إقتحم غرفتـه وقال : دواره ، دواره (والأصبع يشير ويلف فى اتجاه الســاعة) .. ثم كر راجعا .

سريعا توطت العلاقة بيننا ، وصرت أزوره بانتظام فى مكتبه حسب جدوله وتواجده ، نتحدث فى شتى المواضيــع العامــة والخاصــة ، الفكرية والأدبية والسياسية . وبمناسبة النقاش حول مبادرة الســادات السلمية مع إسرائيل حدثته عن السياسي السوداني محمود محمد طــه وكتابه " مشكلة الشرق الأوسط " الصادر فى العام ١٩٦٧ م . فطلــب مني نسخة من الكتاب ، وتمكنت من توفيرها له .

ومما جاء فى الكتاب :

- تحليله وانتقاده للإنقلابات العسكرية ونظم الحكم العسكري .
- الدعوى للديمقراطية والإشتراكية ، وأن الإسلام فــى أصولــه ورسالته السامية هو الوحيد الذي يمكن أن يحقق ذلك .
- اسرائيل صديق فى ثياب عدو لإيقاظ المسلمين من ثباتهم.
- وان الاعتراف دفعة واحدة بإسرائيل هو أفضل من الاعــتراف على دفعات ، وأن ذلك من مصلحة العرب .

- على الحكام العرب القيام بشئون أنفسهم وأن لا يفوضوا الروس للنطق باسمهم ، إذ أنهم يتاجرون بقضايا العرب .

كما أن من أهم ما تناوله محمود محمد طه فى كتابه هو ذلك النقد العقلاني المركز لعبد الناصر ، مدعوما بالنصوص من خطبه وأحاديثه والأحداث والتعليقات . وقد انصب نقده على فكر وسياسات عبد الناصر ، وتأميمه قناة السويس ، وخطبه الماتهبة التى قال عنها محمود أنها من أسباب هزيمة ١٩٦٧م ، وإرتمائه فى أحضان الشيوعية ودعوته للقومية العربية ومناصبته العداء للمعسكر الغربي .

وعلى ما أذكر فإن آخر ما قاله عن عبد الناصر :

لقد آن الأوان لذهاب عبد الناصر .

فليذهب عبد الناصر .

بارك الله لنا وله فى ذهابه .

لقد كان حسن النوايا ، لكن حسن النوايا وحدة لا يكفى لاسعاد الشعوب فلابد من دقة الفكر . ومتانة الخلق ...

ذهبت لبروفسر الششكلى الساعة العاشرة من صباح الأثنين التالي ، وهو شديد الانضباط والإلتزام ، وكان كتاب محمود طع على الطاولة تحت أنفه ، كان شديد الإنفعال ، وأول تعليق له :

ما كنت أتصور وجود مثل هذه العقلية الجبارة فى الوطن العربي ، ولو طبع هذا الكتاب فى أى بلد غير السودان لأثار ضجة هائلة .

وقال إنه كان يتساءل عن المهندس والعقل المدبر وراء السادات . لابد أنه هذا المحمود . وشخص بهذه الحيوية الفكرية لا يقف مكتوف الأيدي . لابد أنه كاتب السادات وأقنعه . كما أن السادات أحيانا يستعمل نفس مفرداته – العقد النفسية .

أخبرته أن الدين هو مركز اهتمامات محمود وأن الكثيرين يكفرونه ، لكن ذلك لم يثنى برفسيور الشكلى من الطلب والالحاح على مده بكل مؤلفات محمود ، حتى الدينية المتطرفة – لكنى لم أجازف بذلك .

من طرق وأساليب محمود

في أواخر الستينات كنا نواظب على حضور محضرات محمود لما فيها من فكر ومنهج ، وبعد المحاضرة كنا نواصل النقاش حتى في الباصات وكلنا وقوف – شماعة – وهو معنا بملابس بسيطة . وكنا كثيرى الذهاب لمنزله المتواضع بالثورة فهو كريم فاضل وحسن العشرة . كما أن اسم والدى كان يفتح لنا تعاملات خاصة (فهو زعيم قبيلة مرموق عند البعض ، وحاكم عادل ومصلح اجتماعي عند آخرين، وولى من الصالحين عند الكثيرين) .

أذكر في ذاك الزمان الإعلان عن مناظرة بين محمود محمد طه وعطية محمد سعيد أحد شبان الإخوان المسلمين المشهورين ، وأصبحت لفترة حدثا يترقبه الناس .. لكنها للأسف ألغيت ، وجاء في الأسباب الغائها أن جماعة الإخوان اشترطوا على محمود تكوين لجنة محايدة للحكم والفصل بين المتناظرين ، مع التزامه المسبق بقرار اللجنة . وقد رفض محمود شروط اللجنة الملزمة . ويقال مما جاء في تبريره للرفض : ما أهون فكر عطية على عطية ، إذا قال له الناس اترك دينك وفكرك ، تركهما . وإذا إتبع المعصوم هذا المنهج لتخلي عن الدعوة .

وهذا الرد من محمود أشبه بمنهج الجمهوريين العقلاني .. والإستفزازي أحيانا .

وضع محمود كتاب الرد على مصطفى محمود ، واذكر رده على ما ذكره بما أن مصطفى محمود بأن (الإنسان يموت بسبب أو بلا سبب) ، أنه بما أن مصطفى محمود طبيب فقد كان الأجدر به أن يقول :(يموت الإنسان بسبب نعلمه أو نجهله) .

محاكم الردة

تجدر الإشارة إلى الشكوى المرفوعة للمحكمة الشرعية فى القضية رقم ٣٥ – ١ – ١٩٦٨ من الأمين داود وحسين محمد زكي ضد محمود محمد طه ، والتى أصدرت حكما غيابيا بأن محمود محمد طه مرتد عن الإسلام . لم ينفذ الحكم أواخر العهد الديمقراطي وقبيل انقلاب النميرى ، لكن تلته حملة إعلامية شملت بعض الدول الإسلامية بما فى ذلك فتوى من الأزهر بأن كتب محمود تحوي كفرا صريحا لا يصح السكوت عليه .

عندما استلم النميري السلطة ، ذهبت لمحمود بمنزله ، ولدهشتي وإستنكاري الشديدين وجدته مؤيدا للانقلاب وتحاورنا فقال :

= إن الله أراد بالسودان خيرا بإنقاذه من الدستور الإسلامي المزيف والطائفية .

– والديمقراطية التى تنادي بها ؟؟!!

= الطائفية أسوأ من الحكم العسكري .

– النظام العسكري لا مبدأ له ولا مستقبل .

= إنه يحكم بأوامر مؤقتة ولا يضع الدستور .

– وإذا وضع دستورا ؟؟

= سنعارضه .

فى سبتمبر عام ١٩٨٣ أجاز النميري ما سماه محمود – الدستور الإسلامي المزيف – وأعلن محمود معارضته ورفضه لقوانين سبتمبر ومن ذلك :

أ – فى ٢٥ ديسمبر ١٩٨٤ أصدر الجمهوريون بيانهم والذى أدى إلى إعتقال محمود ، وقد جاء فيه :

* نطالب بإلغاء قوانين سبتمبر لتشويهها الإسلام وإذلالها الشعب وتهديدها للوحدة الوطنية .

* نطالب بحقن الدماء فى الجنوب واللجوء إلى الحل السياسي.

* نطالب باتاحة كل فرص التوعية والتربية لهذا الشعب .

ب- فى يوم الأثنين ١٧ / ١ / ١٩٨٥ أمام المحكمة قال محمود كلمته :

" لقد أعلنت رأيي مرارا على قوانين سبتمبر ١٩٨٣ م من أن أنها مخالفة للشريعة الإسلامية والإسلام ، وأكثر من ذلك فإنها شوهت الشريعة وشوهت الإسلام ونفرت عنه ، ويضاف إلى ذلك أنها وضعت واستغلت لإرهاب الشعب وسوقه إلى الإستكانة عن طريق إذلاله ، ثم أنها هددت وحدة البلاد ، هذا من حيث التنظير ، أما من حيث التطبيق فإن القضاة الذين يتولون المحاكمة تحتها غير مؤهلين فنيا وضعفوا أخلاقيا فوضعوا أنفسهم تحت سيطرة السلطة التنفيذية تستعملهم لإضاعة الحقوق وإذلال الشعب وتشويه الإسلام وإهانة الفكر والمفكرين وإذلال المعارضين السياسيين . ومن أجل ذلك فإنني غير مستعد للتعاون مع أي محكمة تنكرت لحرمة القضاء المستقل ، ورضيت أن تكون أداة من أدوات إذلال الشعب وإهانة الفكر والتنكيل بالمعارضين السياسيين " .

وهذا بالضبط ما كان يفعله نظام مايو مع كل المعارضين طوال عهده ، والجمهوريون ساكتون عن المذابح التى تعرض لها الأنصار ، الشيوعيون ، والمواطنون .

نسى الجمهوريون شعارهم المتميز " الحرية لنا ولسوانا " ، كما نسوا مشاركتهم فى لجنة الدفاع عن التحريات التى تكونت فى ١٩٦٥ بعد حل الحزب الشيوعي .

إلى مدى أصاب محمود واخطأ فى ترتيبه الأولويات (أو المسلوئ) بين الحكم العسكري والديمقراطية التى تؤدي بالضرورة إلى الحكم الطائفي ؟؟

وإذا كان تأييد محمود لمايو لإنقاذه من الدستور الإسلامي - المزيف - الذى كادت أن تقره الجمعية التأسيسية ، وما قد يتأتى عنه

من احتمال تطبيق حكم الردة عليه ، فقد أحل تأييده لمايو تنفيذ الحكـــم لحوالي خمسة عشر عاما . وبتأييده نظام حكم النميري أصبح محمـــود عدوا للجميع : الطائفيـــة ، والإســـلاميين الســلفيين ، الديمقراطييـــن والشيوعيين . وبخلافه مع مايو اكتملت الحلقة حوله .

دقة الفكر ومتانة الخلق .. لم تعصم محمود من ارتكاب أخطاء قاتلة إستغلها خصومه فى القضاء عليه .

الترابي ومقتل محمود

كان الترابي ركنا فى نظام النميري عندما تم إعدام محمود ، فمـــاذا كان موقفه الديني ، والسياسي ، والقانوني ؟

أخبرني أحد أعضاء الجبهة أنه سمع الترابي يقول فى إجابة علــــى سؤال عن مقتل محمود فى ندوة فى القرية عشرة بالفاو أقيمـــت إثـــر سقوط حكم النميرى فى العام ١٩٨٥ يقول :

" أنا اللى قتلت محمود " ..

يقال أنه ظهرت للترابي فتوى بأن المرتد لا يقتل . هل كان هذا مـــا يراه الترابي قبل وأثناء محاكمة محمود ؟

إذا كانت الإجابة نعم ، فماذا كان موقفه ؟؟

وإذا كانت الإجابة بالنفي ، بمعنى أنه كان يرى قتل المرتد ، وعلـــى ذلك ايد قتل محمود ثم تبين عنده لاحقا أن المرتد لا يقتل ، فأي ديـــن وأي فكر هذا الذى يتلاعب بحياة الناس بهذه البساطة ؟؟

وإن لم تكن المساءلة فإن الحد الأدنى المتوقـــع ، اعـــتزال العمـــل الديني والفكري والسياسي . وعلى نفس القياس كل من شـــارك فـــى إغتيالات حيازة العملة الأجنبية أول عهد حكم عمر البشير .

مقتل محمود وبنك فيصل الإسلامي

في أوائل عام ١٩٨٤ كنت في بورتسودان ومعي صديق إســـلامي منظم ، وكان الجمهوريين في قمة نشاطهم ، وكان رد النميرى عندمـــا اشتكى له البعض منهم عن نشاط محمود وما يبثه من أفكـــار مخالفـــة للدين التقليدي بأن عليهم مقارعته الحجة بالحجة !!

عرض علينا أحد الجهوزيين كتابهم حديث الإصدار عن بنك فيصل الإسلامي ، فاشتريته . سألني صديقي صباح اليوم التـــالي – وكنـــت مقيما بلوكاندة الخرطوم :

– كيف كتاب صاحبك ؟؟

= دعك من الكتاب . لكن أيام محمود أصبحت معدودة !!

– كيف ؟

= بشكل أو بأخر سيغتال أو يقتل محمود في القريب العــاجل ، وإذا كنت حيا سترى ذلك .

– بسبب هذا الكتاب .

= هذا الكتاب حكم إعدام على محمود .

وفي تبيان ذلك شرحت له بأنه من المعلوم تاريخيا عن المســـلمين إتساع صدورهم في الخلافات الدينية ، لكن العنف والقتل بلا رحمـــة يكون في مسائل السلطة .. والمال . وكتاب محمود هو في المنـــاطق المحرمة .. فجزاؤه القتل .

كان معي في الفندق شاب تحدث عن محمود بعد أن رأى الكتـــاب ، وعرف أني ليست جمهوريا ، وذكر أنه كان جمهوريا ، وإنسلخ . قـــال عن محمود : " أنه متعجرف ومتكبر وحاسد " ، وكان تبريره لذلـــك : أنه يتحدث من تحت أنفه متغطرسا ، ويرى نفسه من طينة غير البشـــر ويريد من الناس أن يعبدوه .

وعن حسده ، ذكر أن محمود وبعض جماعته قد لاحظوا من يقـــوم بعمل مصطبة جميلة أمام بوابته في الشارع ، فقال له محمود :

سلطتك على الشارع شنو ؟؟ وكان الشاب يقلد كلام محمود من الأنف ساخرا .

قلت له إن محمود مهندس يعرف حدود الشارع والتعامل فيه ، كما أنه شديد التواضع فى كلامه وملبسه ومسكنه . فقال : إن كل ذلك لا يهمه ، فهو يريد خضوع رقاب الناس وهذا ما لا أعلمه . أما ما أعرفه يقينا شدة محبة وولاء وطاعة أتباعه له ، وإذا كان يضرب المثل بطاعة الأنصار العمياء لإمامهم فالجمهوريون يتفوقون عليهم فى ذلك .

ليس صحيحا ما يقال عن أن كل أتباع محمود من الكوادر العقلية والثقافية المتميزة . وأذكر فى هذا الصدد : تحدث أحد عوام وجهلاء الجمهوريين فى الندوة الأسبوعية التى كانت تقام فى منزل محمود ، وكان كلامه يدل على مستوى ثقافي متدني ومستوى تفكير طبيعى منخفض ، فسألت محمود بعده مباشرة :

أيهما أفضل .. أن يلم الشخص ببعض جوانب المذهب الفكري ثم يعتنقه ، أم يعتنق المذهب أولا ثم يدرسه ؟؟

وكان رده المتوقع كسياسي ورئيس حزب يهمه زيادة عضويته : أن يدخل أولا ثم يتفقه ..!!

هل المطلوب من السياسي أن يكون مفكرا عبقريا ، أم أن يكون مفكرا عمليا حتى ولو كان صاحب مبادئ مثالية ؟؟

وهل ينجح المفكر العبقري صاحب المبادئ المثالية كسياسي عملي واقعي ؟

هل كان محمود السياسي ناجحا ؟؟

وهل هذا الخلط الذى قام به محمود بين التبشير بمذهب ديني غير تقليدي ، وممارسة العمل السياسي الحزبي ، فى بلد يحوى هذا الكم والتنوع الهائل من المتناقضات كالسودان ، هل من الممكن أن يؤدي

إلى غير ما لاقاه محمود طوال حياته ، والتى انتـــهت بـــهذه النهايـــة المأساوية " السقراطية " ؟

كل منهما – محمود وسقراط – كان محبا للناس ساعيا فى صلاحهم ، ومحبا للحياة مقبلا عليها ، متمتعا بمحبة أهله وأصدقائه وكان فـــى إمكانه تفادي مصيره بالقليل من التنازلات ، واحسب أن التشابه بينهما يتعدى ذلك لجوانب أخرى منها :

الشكل العام وتكوين الجسم الطبيعي .

السلوك العام والخاص والنظرة للحياة والأحياء .

اشتراكهم فى خطأ تقييم البشر .

ينسب إلى سقراط قوله : أن الفضيلة هـــى المعرفـــة . بمعنـــى أن الإنسان لا يعمل الشر وهو عالم به ، وأن كل مـــا يحتاجـــه الإنســـان ليكون خيرا هو المعرفة . وبشكل أو بآخر كانت هى نفـــس مفـــاهيم محمود .

تناسوا بذلك ضعف إرادة الإنسان ، كما يرى آخرون أن الشر هـــو الأصل فى الإنسان عامة ، وعليه بذل الجهد الجهيد لمقاومة النزعـــات الشريرة المتأصلة فيه .

قد يضيف البعض لأوجـــه الشـــبه بيـــن الرجليـــن : أن كلاهمـــا فليسوف !!

سألنى محمود بعد امتحاني للشهادة السودانية عن الدراسة الجامعيـــة التى ارغب فيها فأجبته بأني أرغب فى دراسة الفلسفة ، فقال :

الفلسفة لا تحل مشاكل الإنسان ، يحلها الدين – وأضاف أنـــه مـــن الأفضل الإلتحاق بكلية علمية مهنية – ويمكن التثقيف بالقراءة الحـــرة حسب الرغبة .

وقال عنه زميله فى كلية غردون المهندس المتميز محمد الكويـــاوى – المناقل – إنه كان جادا فى كل شئون الحياة .

رسالة الصلاة

من أهم ما ناقشته فيه على انفراد فى منزله ، ماجـاء فـى كتابـه رسالة الصلاة " ، وما تفرع عنه من حديث ، وننقل هنا بعـض مـا جاء فى الكتاب ، الطبعة السابعة ابرايل ١٩٧٩ .

... الفردية هى المدار الإسلامي هو مصدر التشريع بالأصالـة ، والجماعة بالتبعية للفرد ، وأن الفرد لا يتم إستواؤه إلا بتجاربـه فـى الجماعة . (١)

... والقانون الدستورى فى الفكر الإسلامي هو القانون الذى يملـك التوفيق بين حاجة الفرد إلى الحرية الفردية المطلقة وحاجة الجماعـة إلى العدالة الإجتماعية الشاملة (٢)

... الصلاة وسيلة ، الصلاة الشـرعية المألوفـة فـى الحركـات المعروفة الأوقات ، وهي وسيلة إلى المقام الذي يكون فيه الفرد فـى صلة تامة وجسمية شاملة بربه . (٣)

... وللصلاة معنيان (٤) : الصلاة بالمعنى القريب وهى الصـلاة الشرعية ذات الحركات المعروفة (٥) . فى مقـام الشـهود الذاتـي فرضت الصلاة بالمعنى البعيد(٦) وهى الصلة مع الله بلا واسطة فـى مقام " مازاغ البصر وما طغى " ، حيث تطمث عن العبد ذاته المحدثـة ، وتبقى ذاته القديمة فى صلة مع القديم لا يفصلها وسـيط ولا تقـوم بينهما وسيلة ، وهناك تسقط الوسائل والغايات ولا يبقـى إلا الواحـد " وليس لفن العبارة هنا نصيب " ولم يكن جبريل حاضرا لانه لا مقـام له فى شهود الذات ، وذلك لأنه لاذات له ـ لا نفس له ـ بـها يطيـق أنوار التجلي الذاتى... وفى مقام الشهود الأسمائي فرضـت الصـلاة بالمعنى القريب ... وهى الصلاة الشرعية وقد كان جـبريل وسـيطا فيها.

كيف نخرج بصلاة التقليد إلى صلاة الأصالة :

أول ما يقال أن الصلاة هى أشرف عمل العبد ، وأنه يجب أن يؤخذ كل ما يتعلق بها مأخذ الجد التام (٧) .. فإذا أردت أن تحضر فى الصلاة فيجب أن تحضر فى الوضوء ، ويجب أن تعرف له من الحرمة ما تعرف للصلاة تماما ، لأنه طرف فيها فهو يبطل بما تبطل الصلاة . والنية فى الوضوء متنقلة مع غسل الأعضاء .

الصلاة بين المؤمن والمسلم : (٨)

... ويصبح شأن الآية " إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا " مع المسلم الذى يمر بمرحلة الإيمان الذى هو مرتبة الأمة الأولى ، أن الصلاة فى حقه فرض له أوقات يؤدي فيها ، فإذا إرتقى بحسن أدائها بتجويده تقليد المعصوم ، حتى ارتقي فى مراقي الإيمان التى ذكرناها حتى بلغ حق اليقين ، وسكن قلبه وأطمأنت نفسه ، فأسلمت طائعة المعنى البعيد للكلمة " موقوتا " فى الآية . وذلك المعنى فى حقه هو أن الصلاة الشرعية فرض له وقت ينتهي فيه ، وذلك حين يرتفع السالك إلى مرتبة الأصالة ويخاطب بالاستقلال عن التقليد ، ويخاطب ليأخذ صلاته الفردية عن ربه بلا وساط تأسيا بالمعصوم ، فهو حينذاك لا تسقط عنه الصلاة وإنما يسقط عنه التقليد ، ويرفع من بينه وبين ربه – بفضل الله ثم بفضل كمال التبليغ المحمدي – الحجاب الأعظم .. الحجاب النبوي (٩) .

ومما قلته له : إن القارئ العادي يعجبه ما فى الجزء الأول من الكتاب . ويوطن نفسه على التشمير وبذل الجهد لتطبيقه إلا أنه عندما يواجه بما فى الجزء الثاني من الكتاب عن رفع الحجاب والتطور حتى مصاف الأنبياء والرسل ، ومخاطبة الله سبحانه وتعالى كفاحا – مباشرة من غير واسطة – يلقى بالكتاب جملة وتفصيلا . وهذا ما ينطبق على دعوتكم عامة .

وكان رده : إذا كان القارئ أمينا مع نفسه لقال : كان مقنعا ومجودا عندما حدثني فيما أعلم ، وعليه فبالضرورة يكون حديثه فيما لا أعلم على نفس القياس .

إن الذي تقوله لا يمكن إثباته بالعقل ولا النقل ، إنما كشف ، وهذا يمكن إدعائه من كل الأفراد ، فما مصير الدين ونظام الحياة كلها ؟

وهب أن ما قلته صحيح فما الفائدة العملية المرجوة ؟؟ يكفي الحث على التجويد والمجاهدة ، وليرى بنفسه بعد ذلك ما يرى .

قلت له : إذا اقتصرت دعوتكم على جانب المفهوم العملى من الدين لاكتسحت حركتكم السودان لمصداقيتكم وإخلاصكم وعقلانيتكم !!

طلب منى تكرار ما ذكرته واستغرق فى الصمت لبعض الوقت وقال بصوت منخفض كأنما يكلم نفسه :

من الأفضل أن يكون الإنسان عالما بما سيحدث .

متفرقات عن محمود

مثله مثل الصوفية الجادة الصادقة – يؤمن محمود بالجبر ويقول إن الإنسان مسير إلى ما فيه خيره .

يقول محمود بأن الإسلام رسالتان :

الرسالة الأولى : تقوم على فروع القرآن – المدني ، أمة المؤمنين.

الرسالة الثانية : تقوم على أصول الدين – المكي – أمة المسلمين .

وفى تفسير ذلك يقول :

أقوال المعصوم (ص) هى شريعته لأمة المؤمنين بحكم الوقت ، بعد أن عجزت عن تحمل مسئولية أمة المسلمين حسب القرآن المكي فنسخ القرآن المكي بالمدني ، وجاء بتشريعات أمة المؤمنين وظل النبى (ص) هو المسلم الوحيد فى تلك الأمة .

ولكن بحكم التطور الذى حققته الإنسانية فى الحقب اللاحقة فقد تأهلت لتحمل تكليف أمة المسلمين وجاء وقتها . وأن أدنى أفراد أمة

المسلمين أعلى من أعلى أفراد أمة المؤمنين – لا يستثنى الصحابة بما فيهم أبا بكر وعمر ، وقد سألته عن ذلك مباشرة فكان رده كذلك .

ويقول إن الأمر بإختصار هو إحياء سنة النبي (ص) في ذات نفسه ، ولم يكلف بها أمة المؤمنين :

الصلاة : النوافل وقيام الليل فرض .

الصيام : المواصلة ، مواصلة الصيام بضعة أيام بلياليها .

الزكاة : نزلت الآية " يسألونك ماذا ينفقون قل العفو " بمعنى إنفاق كل ما زاد عن الحاجة الحاضرة . وعندما عجزوا عن ذلك نزلت عليهم زكاة المقادير . إلا أن النبى ظل ملتزما بإنفاق كل مازاد عن حاجته الحاضرة ولذلك ما بات فى بيته درهم ولا دينار .

ومن أقواله :

الرأسمالية هي نتيجة قانون الغابة الذى يعطي الحق للأقوياء . وقانون الغابة سابق لمرحلة قانون العدل والرحمة .

الاشتراكية هي صراع العندهم والماعندهم ، وهي نتيجة حكم القانون الذى يرعى حق الضعيف .

الديمقراطية هي المشاركة فى السلطة مثل (الاشتراكية : صراع بين العندهم والماعندهم) فى الصعيد السياسي .

المساواة الاجتماعية : بعد المساواة السياسية (الديمقراطية) والمساواة الإقتصادية (الاشتراكية) يتوج كل ذلك بتحقيق المساواة الاجتماعية وهى أصعب هذه المراحل . وفيها يتساوى الجميع بلا عقدة من لون أو عرف أو دين أو جنس ، وهو المجتمع الراشد الحر الذي يفكر فيه الإنسان كما يريد ويقول كما يفكر ويعمل كما يقول ويكون نتاج ذلك خيرا وبركة وبرا بالناس .

الأخلاق هى حسن التصرف فى الحرية المطلقة .

المال : الأصل فى الاسلام شيوع المال ليأخذ كل حاجته وهي زاد المسافر .

الأصل فى الإسلام السفور : لأن مراد الإسلام العفة وهو يريدهـــا عفة في صدور الرجال والنساء لاعفة مضروبـــة بالبـــاب المقفـــول والثوب المسدول .

قد يكون محمود مثله وبعض المفكرين الإسلاميين الآخرين ، حـــدد مذهبه مسبقا ثم حاول جهده إيجاد الأسانيد لإثباته حتى لـــو اضطـــر لتأويل بعض الآيات ولى أعناقها .

مثلا : الآية السابعة من سورة آل عمران :

" هو الذى انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هـــن أم الكتـــاب وآخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشـــابه منـــه ابتغاء الفتنة وابتغاء تاويله ، وما يعلم تاويله الا الله والراســخون فـــى العلم يقولون آمنا به كل عند ربنا ، وما يذكر الا أولى الالباب "

فى عامة المصاحف وقف إلزامى عند " وما يعلم الاتاويله الا الله "

وهكذا ينتفي علم التأويل من الراسخين فى العلم . أما محمود فينفـــي الوقف هنا بتاتا ، ويقول : الوقف اللازم بعد العلم ، وهو بذلك يثبـــت علم التأويل لله وللراسخين في العلم . وحجته : ما الحكمة في نزولـــه اذا انتفى علم التأويل عن الراسخين فى العلم ؟

فى حالات أخرى قد يذكر جزء من آية لدعم حجته ، فى حين قـــد ينفى باقى الآية .

" واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هدنا إليـــك ، قـــال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شئ فســـأكتبها للذيـــن يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون " الآيـــة ١٥٦ ســـورة الأعراف .

يستدل محمود بجزء من الآية حتى : " ورحمتي وسعت كل شـــئ " ويقول بأن العذاب نفسه منطوى تحت ظل الرحمة ، وهكذا ينفي وجود العذاب الأبدي والذي يقول عنه : أنه لا يصدر إلا من نفـــس حـــاقدة مريضة .

الواضح هنا تحديد وتقييد مستحقي الرحمة وليست مطلقة كما يرى محمود .

محمود وابن طفيل

يبدو أن نفس الأشكال العلمي أو المذهبى الذى نشأ بين محمود محمد طه والسنيين أو السلفيين كان قائما عندما ألف أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل الأندلسي القيسي المولود فى نحو خمسمائة هجرية جوار غرناطة فى الأندلس رائعته الخالدة " حى بن يقظان " .

بعد أن سمع حى عن الله والرسول ، بقى فى نفسه أمران كان يتعجب منهما ولا يدري وجه الحكمة فيهما :

إحداهما : لم ضرب هذا الرسول الأمثال للناس فى أكثر ما وصفه من أمر العالم الإلهي ، وأضرب عن المكاشفة حتى وقع الناس فى أمر عظيم من التجسيم وإعتقاد أشياء فى ذات الحق هو منزه عنها وبرئ منها كذلك فى أمر الثواب والعقاب ؟

والأمر الآخر : لم اقتصر على هذه الفرائض ووظائف العبادات وأباح الاقتناء للأموال والتوسع فى المأكل ، حتى يفرغ الناس للاشتغال بالباطل والإعراض عن الحق ؟ وكان رأي حي بن يقظان هو ألا يتناول أحد شيئا إلا ما يقيم الرمق ، وأما الأموال فلم تكن لها عنده معنى . وكان يرى ما فى الشرع من الأحكام فى أمر الأموال : كالزكاة وتشعبها أو البيوع والربا والحدود والعقوبات فكان يستقرب ذلك كله ويراه تطويلا . ويقول : الناس لو فهموا الأمر على حقيقته لأعرضوا عن هذه البواطل وأقبلوا على الحق ، واستغنوا عن هذا كله ولم يكن لأحد إختصاص بمال يسأل عن زكاته أو يقطع الأيدي على سرقته أو تذهب النفوس على أخذه مجاهرة .

... وكان الذي أوقعه فى ذلك ظنه أن الناس كلهم ذوو فطره فائقة وأذهان ثاقبة ونفوس عارمة ، ولم يكن يدري ما هم عليه من البلادة والنقص وسوء الرأى وضعف العزم وانهم أضل سبيل .

ومازال حى بن يقظان يستلطفهم ليلا ونهارا ، ويبين لهم الحق سرا وجهارا ، فلا يزيدهم ذلك إلا ميلا ونفارا مع أنهم كانوا محبين للخير راغبين فى الحق ، إلا أنهم لنقص فطرتهم ، كانوا لا يطلبون الحق من طريقه ولا يأخذونه بجهة تحقيقه ، ولا يلتمسونه من بابه ، بل كانوا لا يريدون معرفته من طريق أربابه ، فيأس من اصلاحهم وانقطع رجاؤه من صلاحهم لقلة قبولهم " .

" وتصفح طبقات الناس بعد ذلك ، فرأى كل حزب بما لديهم فرحون وقد إتخذوا إلههم هواهم ، ومعبودهم شهواتهم ، وتهالكوا فى جمع حطام الدنيا ، ألهاهم التكاثر حتى زاروا المقابر ، لا تنجح فيهم موعظة ولا تعمل فيهم الكلمة الحسنة ولا يزدادون بالجدل إلا إصرارا، وأما الحكمة فلا سبيل لهم اليها ... "

" فلما فهم أحوال الناس وأن أكثرهم بمنزلة الحيوان غير الناطق ، علم إن الحكمة كلها والهداية والتوفيق فيما نطقت به الرسل ووردت به الشريعة . ولا يمكن غير ذلك ، ولا يحتمل المزيد عليه ، فلكل عمل رجال ، وكل ميسر لما خلق له " .

" فانصرف إلى سلامان وأصحابه ، فاعتذر عما تكلم به معهم وتبرأ منه وأعلمهم أنه قد رأى مثل رأيهم واهتدى بمثل هديهم وأوصاهم بملازمة ماهم عليه من التزام حدود الشرع والأعمال الظاهرة وقلة الخوض فيما لا يعنيهم ، والإيمان بالمتشابهات والتسليم لها ، والأعراض عن البدع والأهواء والإقتداء بالسلف الصالح والترك لمحدثات الأمور . وأمرهم بمجانبة ما عليه الجمهور العوام من إهمال الشريعة والإقبال على الدنيا وحذرهم منه غاية التحذير ، وعلم هو وصاحبه إن هذه الطائفة المريدة القاصرة لا نجاة لها إلا بهذا الطريق،

وأنها إن رفعت عنه إلى بقاع الاستبصار إختل ما هى عليه ولم يمكنها أن تلحق بدرجة السعداء وتذبذبت وانتكست وساءت عاقبتها ، وإن هى دامت على ما هى عليه حتى يوافيها اليقين فازت بالأمن وكانت مـــن اصحاب اليمين .

محمد طه ، محمود – رسالة الصلاة ص (٥٧)

المرجع السابق ص (٥٩) .

المرجع السابق ص (٦١) .

المرجع السابق ص (٧٠) .

المرجع السابق ص (٧٤) .

المرجع السابق ص (٧٥) .

المرجع السابق ص (٨٦) .

المرجع السابق ص (٨٢) .

المرجع السابق ص (٨٤) .

الباب الرابع

في الدين والسياسة

علوم المستقبل فى القرآن

كما حدثنا القرآن الكريم عن الكون ، والمخلوقات الأخـــرى غــير الأرضية ، وخلق الإنسان ، والحكمة من خلقه والمطلوب منه .. حدثنا عن المستقبل ، القريب منه والبعيد

القريب : الحياة الدنيا حتى نهايتها . البعيد : ما بعد الحياة الدنيا .

والمطلوب من المسلمين القيام بالدراسات الخاصة بعلوم المســتقبل القريب ، وهم مؤهلون لذلــك أكــثر مــن غــيرهم . مــن الأمثلــة على ذلك :

* إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبــات الأرض مما يأكل الناس والأنعام ، حتى إذا أخذت الأرض زخرفـها وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أتاهــا أمرنــا ليـلا أو نهاراً، فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس شيئاً ، كذلــك نفصــل الآيات لقوم يتفكرون) يونس (٢٤) .

هذه هى الصورة الأكيدة للمسيرة الإنسانية والكونية فى المســـتقبل القريب ، والذى بدأت تباشره . قبل أن يأذن الله سبحانه وتعالى بإنتهاء الحياة على كوكبنا فأن الأرض كل الأرض ستأخذ زينتـــها ويكتمـل جمالها ويظن سكانها أنهم قادرون عليها . وأحسب أن مــن ذلــك أن تسير الحياة في وفق رغباتهم ، وذلك بالسيطرة على درجات الحـرارة ، الرياح ، الأمطار ، الزلازل ، الأمراض ... إلخ ، ويســبق ذلــك بالضرورة تنسيق جهد عــالمي منظــم فــى السياســة والاقتصــاد ، والإجتماع ، والبيئة ، والقضاء على الحروب ، وفــض المنازعــات سلمياً .

* (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ، فإذا جــاء وعــد الآخرة ليسوؤا وجوهكم وليدخلوا المسجد كمــا دخلــوه أول مــرة ، وليتبروا ما علو تتبيرا) يونس (٧) .

قد تكون هذه نهاية إسرائيل المتوقعة : أن يدخلوا المسجد سلمياً كما دخلوه أول مرة – فى عهد الخليفة العادل عمر ابن الخطاب – ومن ورائهم قوة مادية ومعنوية هائلة بنظام حكم شديد .

العلاقة الإنسانية فى القرآن الكريم

أفاض وفصل القرآن الكريم فى ذكر مختلف علاقات الإنسان مع ربه : الكون ، الحياة والأحياء ، مع نفسه والآخرين . وبما أن هذه ليست من المناطق المحرمة عند السلطات والسلطان ، فقد أبدع فيها علماء المسلمين .

نذكر بعض الإشارات من بعض الآيات لما نحن فيه ، وسنحاول الإختصار وتفادي التكرار .

بعد أن كلف الله سبحانه وتعالى الإنسان بالرفق بنفسه وأبان له أنه – سبحانه وتعالى – به رؤوف رحيم ، كما جاء فى الآية : (يا أيها الذين أمنوا لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ، ولا تقتلوا أنفسكم ، إن الله كان بكم رحيما) النساء (٢٩) ، طلب منه وبكثير من التفصيل حسن التعامل مع إخوانه البشر على مختلف أشكال العلاقة ومستوياتها (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما) النساء (٤٨) . طالما أن الله سبحانه وتعالى يغفر لغير المشرك فيفترض تعاملنا معه وفق ذلك ، وحتى الشرك نفسه فقد نص له القرآن من الحقوق ما يكفيه ، وأن له الحق (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه وذلك بأنهم قوم لا يعلمون) التوبة (٦) .

وهذا الإنسان الذى حمل الأمانة (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الإنسان ...) الأحزاب (٧١) ، فقد كلفه خالقه بالعدل العام الشامل

والإحسان و ... كما فى الآية (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، يعظكم لعلكم تذكرون) النحل (٩٠) . وأباح الله الجهر بالسوء من القول لمن ظلم كحالة استثنائية (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم ، وكان الله سميعاً عليما) النساء (١٤٧) .

وأمرنا بالصفح (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق، وان الساعة لآتيه ، فأصفح الصفح الجميل) الحجر (٨٥) . كما دعانا (قولوا للناس حسنا) ، وبشر وأثنى على (الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس) .

أمر المؤمنين بالشورى (والذين استجابوا لربهم واقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون) الشورى (٣٨) . ونهى عن الظلم والبغي (إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق اولئك لهم عذاب أليم) الشورى (٤٢)

وبعد ان أمر القرآن الكريم بسد منافذ التعاسة والشقاء سلبا ، أمر بكف الأذى إيجابياً أي العمل على إزالته . ودعا إلى فتح أبواب السعادة على مصراعيها : المادية والمعنوية والكلمة الحسنة ، نبضات الحب والمودة ... الخ ، لتشمل وتعم الجميع ، كل حسب درجته ومكانته – القريب ، البعيد ، الجار ، والإخاء الإنساني العام . فالخير والمودة والمحبة والإحسان مبذول لكل الناس . ولا يتأتى ذلك بالدعاء والنوايا الحسنة فقط انما بالعمل المنظم الجاد (... أن الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ..) الرعد (١١)

وهذا لا يتنافى مع معرفتنا وإدراكنا لمواصفات هؤلاء البشر الذين نسعى لإسعادهم ، كما جاء فى القرآن : أكثرهم لا يعقلون ، لايعلمون، لا يؤمنون ، لايشكرون ... كالأنعام ، كالحجارة .

فلا نخدع أنفسنا حتى لا نصطدم بالواقع وننتكس إلى أسوأ مما كنا فيه و (افعلوا الخير لعلكم ترحمون) .

الفصل الأول

الترابي والمصالحة

بعد المصالحة ومشاركة الترابي فى نظام مايو ، وأنا فـي زيـارة للسودان ، التقيت بأحد القضاة السابقين وقد التحق بديوان النائب العـام وأظنه كان مشرفا على مكتب الـترابي بـالديوان ، ومـن الأخـوان المسلمين – أحسب أن اسمه عبد القيوم . سـريعاً توطـدت العلاقـة الشخصية بيني وعبد القيوم ، واذكر أن ذلك كان فى شـهر رمضـان وقد افطر معنا بحى الزهور ، تحدثنا عن المصالحة ومحاذير التعـامل مع النميري ، عرض علىّ تدبير لقاء مع الترابي ، وقد كان راغباً فـى سماع وجهة نظر شيخه الترابي .

تم الاتفاق على موعد اللقاء بديوان النائب العام علـى أن يحضـر الترابي من مكتبه الذى استلمه حديثا بالاتحاد الاشتراكي السـوداني . تأخر الترابي عن الحضور فأتصل به عبد القيوم تليفونيا فاعتذر بعـدم وجود سيارة . فعرض عليه عبد القيوم احضاره بسيارته البيجو ٤٠٤، وأضاف – ما بتليق بالمقام . لم يوافق الترابي واقترح امكانية ذهابنـا للاتحاد الاشتراكي إذا لم يعترض الضيف على دخول الدار . ذهبنـا بالبيجو للمكتب المتواضع التحت التأسيس ، وجدنا الترابي يتحدث عـن تجهيز المكتب والمكيف والسكرتارية . صلينا ثلاثتنا الظـهر ، أمّنـا الترابى وكان يرتدى بنطلون عسلى كما يقول رجال الجـوزات عـن عيون كل أهل السودان . وكانت وجهة نظري بإختصار أن النمـيرى الذى اغتال أصدقاءه وزملاءه لا يمكن أن يؤمن جانبه ..!!

وكان رد الترابي بأننا كسبنا حرية الدعوة والعمل . فقلت لـه قـد يكون من الأفضل استغلال حرية الدعوة والعمل فى التعامل الشـعبي المباشر بعيداً عن السلطة كإقامة مؤسسـات إسـلامية فـى مختلـف المجالات العملية فى إدارة شئون دولة إسلامية ، اقناع الجمهور ببديـل

إسلامي متميز ومتطور ويحقق مصداقية ومثالية الإسلام على أرض الواقع .

اقترح الترابي أن نشارك فى دفع العربة فاعتذرت عن ذلك . وأخيرا كما هو متوقع زج بهم النميرى فى السجون ، وقبل أن يبطش بهم بطشته الكبرى فقد النميرى مقعده ، وهكذا لم ينجوا من عذاب النميرى فقط ، انما نجوا من محنة السقوط مع النميري . وبعد أن كانوا من أذناب مايو يصبحون من أنقاض آثار مايو وهكذا شاء لهم الله القدير أن يتجاوزوا فترة اشتراكهم فى نظام مايو بسلام .

بنك فيصل الإسلامي

أحد المؤسسات الإسلامية الشعبية التى كنا نتمناها ، والذى كتب عنه حزب محمود كتابهم القاتل .

وعندما طرح البنك أسهما للاكتتاب فى عام ١٩٨٣ بواقع السهم ١٦,١٦ دولار ، اشتريت بما يزيد عن سبعة آلاف دولار ، وسريعا ما اتضح لى إن هذه الفلوس تستغل فى أغراض هي أبعد ما تكون عن مصالح المساهمين المالية . وقد أخبرني أحد الموظفين أن البنك يعمل لمصلحة الإسلام ، فقلت له أنى لم أساهم لأسباب دينية ولا سياسية بل ساهمت فقط للحصول على أرباح شرعية . فى إحدى إجتماعات المساهمين وكان يرأسها د . صلاح كمال تحدث عن أن هذا البنك لايعمل لمصلحة المساهمين وأن فلوسنا فى حكم الضائعة . ووجهت حديثى لرئيس هيئة الإفتاء بالبنك – الشيخ الضرير – أن ما يجرى فى البنك هو أسوأ من الربا ، وأنهم أكلوا فلوسنا ، ثم عرضت أسهمى بنصف قيمتها علنا . وافق المحامى فتحى خليل على الشراء فطلبت منه إعلان التزامه بالشراء ، ففعل . إلا أنه رفض صباح اليوم التالى، وكأنى به كان يريد التنفيس عن المنتفعين . كما عرض على الدكتور كمال تمويل مشروع ، فقلت له : كل ما أريده هو قطع علاقتى مع

هذا البنك . بعيدا عن المجتمعين حدثني أحد الموظفين المساهمين فقال أن ما قلته حقيقة ، وأن أموال هذا البنك تتسرب بطريقة مريبة ، وأنهم أطلعوا بعض المساهمين على حقائق خطيرة وكان يفترض ذكرها في هذا الاجتماع إلا أنهم جبنوا .

كلم ابن عمى ابراهيم- الجبهجي - وهو من كبار الجبهجية المنتفعين من البنك وله مكتب فخم بالفيحاء مبنى البنك الرئيسي ، حدثه عن بيعي للأسهم فوافق على شرائها ، وسافرت له وسألني عن الثمن فقلت أبيع بنصف الثمن .

- هذا بيع وكسى .

- الوكس أنا ما أعرفه ، لكن أكون شاكرا إذا اشتريتها.

- أنا أشتريها بالثمن الكامل .

سافرت له للمرة الثانية أو الثالثة ، وبعد انتظار ومكالمات هاتفية قال :

- الأسهم دي ما نافعة .!

" بعد كل هذه المشاوير "

- " أنا عارف ما نافعة ، إنت ما عارف الحاصل شو ! ؟ أخذوا فلوسنا نحن وأعطوها لك أنت علشان تشتغل بيها وتغنى وتتمتع وتقعد فى المكتب دا .. !!

- ما فى داعي للكلام !!

- مية داعى ، عشان تعرف الذين دفعوا الثمن : المساكين والأرامل دفعوا فلوسهم عشان اسم الدين .

- أنت عارف مين أنا !!

- عشان عارف . بقول هذا الكلام !!

وأخيرا انكشف بنك فيصل الإسلامي على حقيقته وضاعت حقوق المساهمين ، وأصبحت قيمة خمسة أسهم بدولار واحد .

صلاح المصباح

فى نفس الأيام التى تحدث فيها الأستاذ صلاح حديثه الشهير مع النميري فى مسجد قوات الشعب المسلحة كنت مزمعا السفر لليونان للدراسة والعمل والإستقرار ، حيث سبقني الزميل الصديق محمد الحسن البدوى ، الإسلامي المتعصب المتحمس . كنت على علاقة حميمة بأسرة محمد الحسن خاصة والده ، كثير الزيارة لهم فى منزلهم جنوب حديقة القرشي . بدأت محاكمة صلاح المصباح فورا وهو صديق وابن عمة ونسيب محمد الحسن ، وبالطبع كانوا فى تتبع يومى للمحاكمة .

سافرت اثينا ونزلت بداخلية " اليسيا " حيث يقيم محمد الحسن مع الطلبة السودانيين . كان اهتمامهم منصب على الشاب السوداني الشجاع الذى واجه النميرى فى المسجد - الإسم غير معروف لديهم ، وذلك بزعامة محمد الحسن ، وكان بودي التريث حتى أحدثه على إنفراد ، فقلت لهم أنه تعرض لاعتقال رجالات الأمن والمساءلة والمحاكمة ، فخطب محمد الحسن عن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر . . .

فقلت لهم أن له أسرة وزوجة وأطفال وأنهم جميعا فى حالة قلق وإنزعاج مما جرى عليهم . . . إشتعل حماس محمد الحسن وقال أن على الناس التضحية وتحمل النتائج و . . . ولإسكاته سألته :

- أنت عارف إللى تكلم مع النميري دا مين ؟
- لا ما عارف .
- دا صلاح المصباح .

قال شاخص العينين : صلاح حقنا ؟

- آي صلاح حقكم !
- الزول دا جنة والا شنو ؟؟

- جنة عسة ، ما كان بطل ، وكانت التضحية .

صحيفة المعارضات العربية

عن العمل فى أثنيا عرض على أحد قدامى الطلبة السودان العمل فى صحيفة عربية يعمل نائبا لرئيس تحريرها . بعد الإتفاق المبدئي وتحديد تاريخ بدء العمل قال أنه آن الآوان ليخبرني بأسرار العمل !! وأول ما ذكر أن الصحيفة لا تجدها معروضة فى الأسواق !

- وأين تباع ؟

- إننا نطبع أعداد محدودة ونوزعها لجهات خاصة .

- ما هى الجهات الخاصة ؟

- إننا ننشر للمعارضات العربية ، كل حكومة عربية لها معارضة ونحن ننشر لهذه المعارضات ، ونسلم كل معارضة الكمية المتفق عليها .

قلت له :

- أنتم ما فيكم عاقل ؟

- كيف ؟

- طبعا لن أعمل بهذه الصحيفة ، دعك من الأسباب المبدئية أو الأخلاقية ، أنتم لا تعرفون الأنظمة العربية ، أنتم فى خطر مميت وعليكم تدارك الأمر !

خلال شهر تعرضت الصحفية لهجوم بالمتفجرات قتل فيه الرئيس، وهو غير سودانى .

لحم الخنزير

السودانيون فى ذلك الزمان مترابطون متوادون فى كل مكان خاصة الطلبة ، إلا إني لاحظت إنفراد أحدهم ، حتى فى المطعم يكون لوحده أو مع أجانب . شرحوا لى الأمر :

- لاحظت انعزال فلان .
- لاحظته .
- إنه أكثر إرتباط بالأغاريق من السودانين !
- ما كويس .
- أصبح يأكل معهم لحم الخنزير !!
- بطال كل البطال !!

يكتب على لحم الخنزير بالعربي كما يوجد لحم بديل .

دعاني المتهم لشرب الشاى فى حجرته ، ذهبت وأخبرته إنى لا أشرب الشاى . وعن تبريراته قال :

- أن بعض الاغاريق أصدقائي ، وتعارفت بهم هنا كما تعارفت بالسودانيين هنا ، وهم عندي سواء .
- وجهة نظر .
- يقولوا أني آكل لحم الخنزير ، نعم آكل لحم الخنزير .
- بطال كل البطال .
- نعم بطال وحرام ، أعلم ذلك ، لكن الدين فى الخنزير وحده ، الخمر والنساء حرام وهم يفعلون كل ذلك ، فلم المقاطعة في الخنزير؟

الجنة بلا عمل

فى نقاش مع استرالي أبيض غير عنصري صديق للسودانيين يدافع عن الالحاد ، قالوا له إنهم لكونهم مسلمين فسيدخلون الجنة . فقال لهم: إذا كانت هناك جنة فلن تدخلوها بهذا الكلام . ما الفرق بيني وبينكم ، وقد أكون أفضل منكم ، وجدتم أنفسكم فى مجتمع مسلم فأصبحتم مسلمين فأى فضل لكم ؟ .

أخبرته إن ما قاله أقرب للاسلام ، فكلام من غير عمل لا معنى له . وأن عليه البحث وقراءة القرآن .

مسلمتان يابانيتين

بالقرب من أحد المساجد الكبيرة باسطنبول استوقفتني شابتان يابانيتان مسلمتان طالبتان بانجلترا ، وقالتا أنهما يريدان معرفة المزيد عن دينهما الجديد . ومما عرفاه عن الإسلام : على المرأة أن تتغطى بالكامل عدا عين واحدة ، ومنع التعامل مع الرجال ومنع النساء من دخول المساجد . كان زيهما محتشما عدا غطاء الرأس ، أخبرتهما أن الأمر ليس كذلك ، وحدثتهما عما أحسبني أعرفه ، وأن المنع للخمر والمخدرات والحرية الجنسية والابتذال .. ويمكنهما دخول المسجد والصلاة فيه ، وأن تبحثا عن ابنة أحد الشيوخ بالمسجد لتساعدهما على الإلمام بالدين واللغة الإنجليزية .. وقد كان .

تناقض فى كتاب مادة الدين

أستاذنا للتربية الإسلامية فى الفصل المسائي بمدرسة الخرطوم الثانوية الجديدة فى العام الدراسي ٧٣ / ١٩٧٤ ، من خيرة المعلمين : مادة ، أسلوب ، معاملات . فى درس الصيام كان يقرأ من الكتاب ، أكمل قراءة صفحة ، قلب الورقة وأكمل ، فإذا بالكلام يتناقض مع بعضه ، مع هذا القرب الشديد ، آخر صفحة مع أول الصفحة التالية .

أخبرته بأن هذا الكلام يتناقض مع بعضه .

قال منزعجا :

- لا يوجد تناقض فى الدين .
- لا أقصد الدين ، لكن الكلام يتناقض مع بعضه البعض .
- الأفضل أن تقول إنك لا تفهم .
- أحسبنى فاهما ، فلنقرأ :

قرأت لنهاية الصفحة ، وقلت له : أليس معناه كذا قال نعم . ثم قرأت بداية الصفحة التالية ، وقلت أليس معناه كذا قال نعم . لكن هذا الكلام يتناقض فى كذا وكذا وشرحت له التناقض . أخذ يقرأ ، ويقلب

الصفحة ، ويعيد القراءة . فعل ذلك عدة مرات . كان مستغرقا بكل حواسه ، وكأنما على رؤوسنا الطير .

وأخيرا أقفل الكتاب ووضعة على الطاولة وشد قامته بعد أن زال عنه التوتر .

– كلامك صحيح يا ابني ، هذا الكلام يتناقض . افاض بقية الحصة عن التناقض ، عن شروط الصحة وشروط الوجوب .

بدأ حصته التالية بعد أيام قائلا بأنه ذهب للوزارة واجتمع مع لجنة المنهج – وهو عضو فيها . ناقش معهم الموضوع وأنه سيحدث تغيير فى أول طبعة قادمة ، ثم فتح أول الكتاب وقرأ :

تمت إعادة طبع هذا الكتاب عدد – احسبها – خمسة طبعات خلال كذا من السنين ، ولم ينتبه طالب ولا استاذ لهذا الخطأ .

الفصل الثاني

العلوم الإسلامية بين الماضي والحاضر

الماضي : فترة إزدهار العلوم الإسلامية فى عصر إزدهار الدولة الإسلامية ، والتى تم فيها جمع وتأليف وتصنيف العلوم الإسلامية التى مازالت تشكل المرجعية المعتمدة .

الحاضر : العصر الحديث والتعليم الحديث بعد الغزو الاستعماري ومناهجه ومدارسه الحديثة .

فى الماضي

العلوم الإسلامية هى العلوم المركزية ذاتِ الامتياز الأول والعائد المادي والاجتماعي والسياسي الأول ، لذلك اجتذبت العقليات والمواهب المتميزة . دخلوا السباق منذ الصغر - حفظوا ما يحتاج للحفظ ، درسوا على شيوخهم فألقموهم ثمار ما صار إليهم من الاسلاف الافذاذ . وهم على علم بالامكانيات المتاحة : العمر الإفتراضي للإنسان والحواس ، وقدراته : الذاكرة ، النظر ، ... الخ ، الكتب ونسخها ، الحفظ ، السفر والترحال ، وظروف ذاك الزمان وسلبياته وايجابياته .

بذلت تلك العبقريات جهدا كبيرا لاستغلال الايجابيات وتذليل الصعاب والسلبيات ، فحققوا هذا الإنجاز الهائل الذى ظللنا نتطفل عليه حتى يومنا هذا . وما أحسبه يرضيهم ولا يظنوا فينا خيرا إذا ماأستمر هذا المنحنى ، إلا أنه تجدر الإشارة إلى المتغيرات السياسية التى لحقت بالنظام الإسلامي شبه الديمقراطي فى عهد الخلافة الراشدة وتحويله إلى نظام حكمْ فردي وراثي أثر استيلاء بنى أمية على السلطة ، استدعت استحداث آليات لسل الاحساس المرهف بقيمة العدل والحرية والمساواة التى غرسها القرآن الكريم ومارسها الرسول الأمين

ورعاها الخلفاء الراشدين على قدر طاقتهم . هـذا الإحساس وتلك المفاهيم التى أشعلت الثورة على عثمان ، وقتلته على الإتهام بتجاوزات قد تعد من صالح الأعمال إذا ما قيست وقورنت بما ارتكبه حكام بنى أميه فى أمة المسلمين .

هذا العمل يستدعى بالضرورة تحوير وتهديم فى قواعد الفكر الموجود ، وإقامة فكر بديل يفى بحاجات ومتطلبات الحكم الجديد ، وبما يقمع المعارضات الفكرية والسياسية ولضمان استمرار النظام فى المستقبل . وليس من بأس – بل من المرغوب فيه – أن يكون للآخرين نصيب فى الغنيمة ، باستخدام نفس الأدوات أو أخرى شبيه تفى بالغرض .

وهكذا قد يكون حدث منظم متكامل على المنهج القرآنى فى : نظام الحكم ، الاقتصاد ، القانون ، المجتمع ... الخ

الحاضر

تسلمت أوروبا راية الحضارة من الشرق الإسلامي بعد أن أعياه الركض بها . ضخ فيها من الدماء الحارة التى ولدت طاقة إبداعية متفجرة غيرت مجرى الحياة التى ألفها الناس . أسهمت بعض اكتشافات عصر النهضة مثل : النظارة ، الطباعة ، الكرسي ، الإضاءة ، المكتبات ، المدارس ، وسائل البحث والتدريس ...الخ فى تشكيل الأساس القوى لنهضة متجددة .

دخلت هذه الوسائل والمعدات والأساليب العالم الإسلامي العربي مع الاستعمار ومدارسه ومفاهيمه الخاصة للحياة والحضارة ، ولذلك لم تكن وسائل محايدة ، بل كانت فى حالة عداء سافر للإسلام والمسلمين. أما فى الجانب التعليمي – الأكاديمي إرتبط النظام التعليمي الجديد بالتركيبة المهنية والإقتصادية والاجتماعية المستحدثة . والعلوم الإسلامية – المحاربة أصلا من قبل النظام – لا تدر عائدا ماديا

مجزيا وأصبحت فى أدنى سلم الأوليات ، وهكذا تحدد بصفة عامة المستوى العقلي لطلبة هذه العلوم ، وبعد أن استحوذت المجالات الأخرى على العقليات اللامعة . ومن يتفوق فى مجال الدراسات الإسلامية فإنه يتفوق على أقرانه – حسب التصنيف المذكور .

وهكذا ما أخذناه باليمين : أجهزة وأساليب حديثة دفعناه بالشمال : افتقاد العقليات المتميزة التى يفترض فيها القيام بعبء شق طريق دراسات إسلامية حديثة بإمكانات ووسائل حديثة . وهكذا ضاعت ثورة العلوم الأولى وأهلت علينا الثورة الثانية ، ونحن مكانك سر . وأطلت الصحوة الإسلامية أو الحماسة الإسلامية ، كان يفترض أن تسبقها صحوة علمية إسلامية عقلانية لتجد الطريق ممهدا ، لكن الذى حدث غير ذلك :

قوى دفع فاعلة من العواطف المنطلقة ، منها الهادىء كالنسيم ، ومنها المغموس فى انفاس الشياطين ولفح جهنم ، وما بينهما من مختلف الأشكال والألوان . حالة من الهياج العصبي ، طاقات منطلقة بلا انضباط ولاتوجيه .

والمحصلة لا شئ إيجابي .

فقدنا الكثير : فقدنا خيار الناس والموارد والزمن ، والأشبه أن يستمر هذا النزيف . لا نفتقد الشجاعة القتالية ولا الشجاعة الأدبية لكن يبدو أننا فى أمس الحاجة إلى جرعات عالية من الشجاعة العقلية .

الشجاعة الفكرية

إن التغلب على الردة الفكرية التى بدأت مع تحول نظام الخلافة إلى نظام حكم ملكي ، وما أحدثته من تغيرات فى كل مناحي الحياة ، وما اكتسبه من زخم وقوى دفع عبر القرون ، يحتاج إلى جهد يخترق كل تلك المقاومات للوصول إلى نقطة الارتكاز الأولى .

- نحتاج للشجاعة العقلية لمحاولة فهم كتاب الله ، أنه أنزل لنتدبر ما فيه وهذا أمر .

- تحاشي سلبيات الغرض والحكم المسبق . اتجاه البحث عن الحقيقة مباشرة وتجنب التصورات والأحكام المسبقة ، أو افتراض وجهات نظر والبحث عن أدله لها .

" قرر الأمويون أن الجبر يخدم دولتهم وطفقوا يبحثوا عن الأدله "

- نؤمن بأن ما جاء فى كتاب ربنا عز وجل هو الحق اليقين ، بشرط الفهم الصحيح ، فلا نشعر بالدونية ولا الانهزامية ، ولا نعمل على ترضية الآخرين . كنا نعلم أن الأرض - دحاها - وأن الشمس - تجري ، وكانوا ينكرون ذلك ، وكنا نخشاهم .

التجاوز عن القضايا الانصرافية ، والتركيز على علم تنفيذي مرتبط بالحياة والأحياء . فما ينفعنا أن الفتاة كانت تسير أمام موسى وضرب الهواء بعجيزتها ؟ ومن شاهد ذلك ؟؟

لا نجزع ولا نضطرب إذا وجدنا ما كنا نعده من المسلمات ليس منها إنما يحتاج إلى بحث وإعادة نظر ، فلنبحث ولننظر ، ونحن مأمورون بذلك ومثابون عليه .

إن الشروط القديمة والتى ألزمتها دواعي وظروف ذاك الزمان ، قد تتجاوزها التطورات الحديثة ، فإذا كان لزاما على العالم أن يحفظ كذا وكذا ، قد لا يحتاج إلى كل ذلك مع الحاسوب مثلا ، ويمكن الاستعانة بعقليات تحليلية لا تتمتع بملكات فى الحفظ . وإذا كان على العالم أن يكون موسوعيا فيما مضى ، فقد يكون من الأفضل التخصص فى عصرنا هذا . وقد يوجد من تحقق علمه فى مسألة واحدة - فقد اقتنعنا بتحريم مالكوم السجائر منطقيا - قبل عشرات السنين - وهو جاهل بأساسيات الإسلام .

إن المفكر ليس سياسيا ولا محاربا ، عليه البحث الجاد الأمين عن الحقائق ونشرها وهو آمن .

الارتباط العكسي

قد يوجد ارتباط عكسي بين الانتصارات والإنجازات التى تحققـــــها البشرية مع اخفاقات وانتكاسات ومخاطر تلم بالأمة الإسلامية :

١. تزامن خروج المسلمين من شبه جزيرةَ أيبريا مع الاكتشـــــافات الجغرافية الكبرى .
٢. اندحار النظام النازي العنصري وقيام دولة اسرائيل .
٣. انهيار الدكتاتورية الشيوعية كشف ظهر وبطن المسلمين .
٤. الدعوة لحقوق الإنسان ، مع اســــتغلالها لأغــراض ومصـــالح وانزال عقوبات بالبعض ، ألا ذلك لا ينفي ضياع الإنسان وحقوقــه فى العالم الإسلامي .

لسنا فى حاجة إلى مهدى منتظر
ولا إلى أذان مسموع فى قمر
ولا تعويذة مكتوبة على ورق الشجر
ولا كشف سر يلقى على قلب بشر

****

ما عندنا يكفى الحاجة ويزيد
إذا ما سكبنا على عقل جليد
ودثرناه بقلب حديد
وهكذا نبدأ العهد الجديد

الفصل الثالث
نحو نظرية معرفية إسلامية

هل تنسخ السنة القرآن ؟؟

تباينت إجابة الذين سألتهم من المهتمين . منهم من قال بالنفى واستنكر مجرد السؤال عن هذه البديهية !! أكثرهم لم يسبق له الاهتمام بالمسألة ولا التفكير فيها !! قليلون قالوا بجواز ذلك ، وأن الرجم نسخ للقرآن ، فإذا لم تكن السنة تنسخ القرآن فالبحث فى القرآن مباشرة ، فما وجدناه بينا كاملا فلا حاجة للبحث فيما سواه ، وإذا إحتجنا إلى إضافة أو تفصيل فالبحث فى مظانها ، أما إذا قلنا أن السنة قد تنسخ القرآن فيتعين :

أ – إثبات ذلك بصورة قطعية .

ب– التحديد الدقيق لما تنسخه السنة .

وعلى كل الأحوال ، فإن القرآن هو حجر الزاوية فى البحث ، ورسولنا الكريم يشكو منا مر الشكوى :

" وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا " الفرقان (٣٠)

وفى سورة (محمد) أمر صريح للبني ص " فأعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم " (١٩) .

النبى صلى الله عليه وسم يعلم أنه لا إله إلا الله ، لكن قد يكون المقصود علما حاضرا فاعلا فى كل شئون الحياة .

موجهات

١. لا يختلف المسلمون فى قطعية ومصداقية النصوص القرآنية والزاميتها .

٢. المنع البات للكذب بما يشبه خروج الكاذب عن ملـــه الإســلام " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مـــع الصـــادقين " التوبـــة (١١٩).
٣. " وما يتبع أكثرهم الا ظنا أن الظن لا يغني من الحق شيئا ، إن الله عليم بما يفعلون " يونس (٣٥) . وهذا لا يحتاج إلى شـــرح ولا تعليق.
٤. " خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجـــاهلين " الاعـــراف (١٩٩) . الاعرض والانصراف عن الجاهلين وليس لـــهم فـــى مسائل الفكر نصيب – حتى يتجاوزوا مقام الجهل غير الكريم .
٥. " قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنـــى وفـــرادى ، ثـــم تتفكروا ، ما بصاحبكم من جنة ، إن هو إلا نذير لكم بيـــن يـــدى عذاب شديد)) سبأ (٤٦).

القيام : الجدية والحيوية والنشاط فليس الفكر والتفكر بـــالأمر الهين ولا من أعمال التبطل والدعة ، لكنه حركة قوية فاعلـــه ومؤثرة

لله : الاخلاص لله تعالى ونفى كل ما سواء ذلك من رغبـــات أو مصالح أو تقية

مثنى وفرادى : بدأ بالحد الأقصى (مثنى) اثنين ، ثم نـــزل للواحدة وليس بعد الواحد إلا العدم ، للقطع الجازم عن احتمـــال أى زيادة ، ودليل حاسم على أن الجماعة – أكثر من اثنيـــن – لا تفكر ولا تتفكر ، إنما عقل جماعي قطيـــع ومثلـــه (اقتلـــوا المشركين ... وإن أحد من المشركين استجارك فـــأجره ...) المشركين : جماعة ، قطيع لا يفكر . مشرك واحد إنسان مفرد يمكن أن يفكر .

ثم تتفكروا : بعد الاعداد وتوفير الاشتراطات اللازمة يمكن تشغيل الالات والأجهزة الخاصة بالتفكير . بهذا فقط يمكن الوصول إلى نتائج عقلانية مسئولة .

ويمكن القول أن الفكر والتفكر مسئولية فردية أو شبة فردية، وأنه من الممكن الاعتماد على القرآن الكريم كرافد أساسي فى استنباط نظرية معرفة إسلامية متقدمة . ومع ذلك وعلى الرغم من كل الجهود المبذولة ، فإن الخلاف سيظل باقيا ، إذ أن الخلاف هو الأصل فى هذه الحياة الدنيا .

الخلاف

الأنعام ١٦٤ (.. ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون)

يونس ١٩ (وما كان الناس إلا أمة واحدة ، فاختلفوا ، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما هم فيه يختلفون) .

هود ١١٨ ، ١١٩ (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ، وتمت كلمة ربك لأملان جهنم من الجنة والناس أجمعين) .

النمل (ليبين لهم الذى يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا انهم كانوا كاذبين) .

يونس ٩٣ (ولقد بوأنا بنى إسرائيل مبوأ صدق ، ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) .

- من الآيات الكريمة عاليه ، يمكن القول أن الخلاف هو الأصل فى الحياة ، وسيظل إلى أن يرث الله الأرض .
- أشكال متابينة من الخلاف : تدرج من الكفر الغليظ إلى الخلافات داخل الدين الواحد والمذهب الواحد الفرع الواحد .

ومن الغرائب أن الخلاف كلما كان هامشيا كان أشد قسوة وأكثر مدعاة للتنافر.

- والخلاف ليس خيرا لاستثناء = من رحم ربك = .
- قد يفتح العلم المزيد من أبواب الخلاف .
- الخلاف مثله وآفات الحياة الأخرى : الأمراض والشهوات : خلق الإنسان فى كبد - خلق الإنسان من عجل - والتعامل معه - مثلها - كحقيقة واقعة السعي لعلاجها - الحد من آثارها السلبية - التعايش معها ...

مؤشرات عن العهد الإسلامي الأول

الرسول صلى الله عليه وسلم

رسولنا الكريم مثله والرسل من قبله ، مع نزول الوحي من ربه مباشرة وتلقيه التوجيهات والأحكام الخاصة به والعامة ، إلا أن فى حياته مثل ما فى حياتهم عظات وعبر ، وأحسب أن من أكبر العبر في حياة رسولنا صلى الله عليه وسلم : حادث الإفك .

واستغفر الله من كل ذنب ، ماكنت لأصدق حادث الإفك لولا أنه جاء فى القرآن الكريم ، ومثله مافعله أخوة يوسف بأبيهم . إن هذه الأحداث ليست مثل المعجزات التى هى أصلا خرقا للنواميس والسنن الدارجة ، لكنها تصرفات إنسانية ، وليست من بشر تقليديين ولا فى حق بشر عاديين . قد تكون هذه أمثلة على حياة الإنسان على الأرض، وما فيها من ابتلاءت وتجاوزات وإنحرافات . وأهم شخصيات حادث الافك : رسولنا الأمين صلى الله عليه وسلم ، وعائشة أحب زوجاته إليه ، وأبوها أبو بكر الصديق أقرب الرجال إلى قلب النبي صلى الله عليه وسلم ، والذى إن وزن إيمانه بإيمان الأمة لرجح ايمانه ، وكبار الصحابة بما فيهم على ابن أبى طالب ... الخ

وكما ورد فى القرآن الكريم إنه ليس شر بل هو خـــير " إن الذيـــن جاءوا بالإفك عصبة منكم ، لا تحسبوه شرا لكم ، بل هو خير لكـــم ، لكل أمرئ منهم ما اكتسب من الإثم ، والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم " النور (١١)

" لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقـــالوا هذا إفك مبين " النور (١٢)

وهكذا تتواصل الآيات فى تبيان الأخطاء والتجاوزات والإنحرافات، وأنه كان فيما نزل من القرآن عاصم من مثل هذه الزلات ، وكان لـــهم فى تربيتهم وظنهم بأنفسهم وأخواتهم الخـــير واقيـــا مـــن الاتـــهامات البطالة، لكنهم ماالتزموا ، انفعلوا واندفعوا واخلـــدوا إلـــى طبيعتـــهم البشرية فظلموا أقرب أقاربهم واحب الناس إليهم .

والجدير بالبحث :

- الرسول المشرع — الرسول المنفذ

أبو بكر الصديق

مواقف أبو بكر حتى وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ورده علـــى عمر عندما انكر عمر وفاته صلى الله عليه وسلم .

الخلافات وتعيين أبا بكر

توزيع الثروة فى عهد أبي بكر

عندما سأله عمر عن كيفية توزيع الأعطيات ، أجاب أنه ســيوزعها بالتساوي على المسلمين .

احتج عمر وقال أن مـــن المســـلمين أهـــل بيـــت النبـــي (ص) ، المهاجرين ، الأنصار ، البدريين الطلقاء ...الخ . قال أبو بكر أنه يعلم ذلك ، لكن ثوابه عند الله تعالى ، أما هو فيقسم أسباب المعايش والناس فى ذلك سواء .

وأبو بكر أسبق إيمانا ، وأكثر صحبة والتصاقا بالنبي وإدراكا لمبادئ وروح وأهداف الدين الجديد .

عمر بن الخطاب

تعيين عمر

يبدو أن الخليفة العادل شكت لابى بكر من غير اقتناع ، إذ سوعان ما نفذ سياسته واقام العدل حسب قناعته . صنف المسلمين حسب افضليتهم ، تحديد الأنصبة وفقا لذلك . والمؤكد أنه نفذ ذلك بمبدأه العدلى الشهير . وتجدر الإشارة إلى قصة جبلة بن الأبهم وتشدد عمر معه وهو أحوج ما يكون له ، لكنه مفهوم العدل الصارم الذى لا يراعى سياسة ولا مصلحة دعك من الأثرة والإنحراف . لا ينفي ذلك إنه ألغى مبدأ المساواة فى التوزيع وسن سنة التفاوت والتباين فى توزيع الاعطيات . وينسب إلى عمر فى آخر عهده قوله : لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء ورددتها على الفقراء . وإن صح ذلك فإنه قد يكون مؤشرا على ندمه فى مخالفة سياسة سلفه الحكيم ، وهذا يذكرنا أيضا بما ينسب إلى الخليفة عمر : " الحمد الله الذى جعل فى المسلمين من يقوم عمر بسيفه " . لكن التقويم بالسيف كان من نصيب أحد أعضاء مجلس الشورى الذى عينه عمر ليختاروا أحدهم خليفة . ويفتح تكوين هذا المجلس بابا واسعا لدراسة هذا الأسلوب : سلبياته ، وإيجابياته ، بدائله ، واهم من ذلك مستقبله كمنهج لإختيار الحاكم وتقويمه وعزله إذا سارت الأمور على غير المسار الدموى العنيف المعروف .

الخليفة عثمان

وجد عثمان التفاوت فى توزيع الأعطيات سياسة عمرية نافذة ومقبولة . وينسب إلى عثمان القول :

إذا كان عمر يتقرب لله بحرمان أهله ، فإنى أتقـــرب لله بالأنفـــاق عليهم . وهذا أشبه به ، فقد كان عطوفا ، محبا للمسلمين عامة ولأهلـه خاصة .

ويمكن القول إنه بدأ من حيث ندم سلفه العادل .

من الواضح أن السياسات المالية تخضع بالكامل لقناعات ومفـــاهيم الخليفة . حيث تطورات الفتنه الواردة فى كتب التاريخ التى أدت إلـــى مقتل الخليفة عثمان .

الخليفة على

أخيرا تم تعيين على خليفة فى ظروف شـــديدة التعقيـد . فشـلت محاولاته الإصلاحية .

ثم مقتل على وتعيين ابنه الحسن خليفة للمسلمين منافســا لمعاويـة الذى نصب نفسه خليفة .

قد يكون الحسن أصلح من يتولى المنصب فعلا ، لكن هذا لا يمنـع أنها بداية النظام الوراثي ، وان كان معاوية لا يحتاج إلى مثـل هـذه التبريرات .

فشل المسلمون فى المحافظة على نظامهم السياسي التقدمي ، فـــى ذلك الزمان ولو أنهم حافظوا عليه وطوروه لدفعوا المسيرة البشـــرية السياسية أكثر من ألف عام إلى الأمام بعد أن عجزوا ، وساروا سـيرة الأمم المعاصرة لهم .

حكم الفرد الوراثي

والغريب كل الغرابة محافظة المسلمين على هذا النظام الذي ألجاهم له الفشل والاحباط ، والتمسك به أن تجاوزته المسيرة البشرية . وقـد يكون هذا مؤشرا على النجاح الباهر الذي حققه (تحوير وتهديم قواعد الفكر الموجود وإقامة فكر بديل يوفي بحاجات ومتطلبات نظام الحكـم

الجديد ، وبما يقمع المعارضات الفكرية والسياسية ولضمان استمرار النظام فى المستقبل .

الرق فى الإسلام

مصادر وموارد الرق فى الإسلام

يبدو إن علماء المسلمين عندما لم يجدوا موارد للرق تتناسب مع مايدعو له دينهم . قالوا باسترقاق أسرى الحرب حسب الواقع المعاصر والمعاملة بالمثل .

لكن أسرى الحرب لا يمكن إسترقاقهم بحكم ما جاء فى القرآن الكريم صراحة : " فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعدو وأما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ، ذلك ولو شاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا فى سبيل الله لن يضل أعمالهم " سورة محمد (٤) . فأسير الحرب يطلق سراحه بمقابل أو بدون مقابل .

وأحكام التعامل الواردة فى الإسلام عن الإرقاء خاصة بما هو موجود أصلا . والأحكام الإسلامية تتعامل مع واقع معاش لم يوجده ولا يؤيده الإسلام .! وبالفعل شرع الإسلام العتق ولم يشرع الرق . فى الآية ٢٤ من سورة النساء بعض الأحكام الخاصة بالإماء : (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت إيمانكم من فتياتكم المؤمنات ، والله أعلم بإيمانكم ، بعضكم من بعض، فانكحوهن بإذن أهليهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات ، فإن أحصن فإن آتين بفاحشة فعليهن نصف ماعلى المحصنات من العذاب ، وذلك لمن خشى العنت منكم وإن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم " .

ومن الأحكام الواردة فى تلك الآية الكريمة :

المستطيع والقادر على زواج الحرائر زواجه من الاماء فى حكم الممنوع ، أما غير المستطيع زواج الحرائر فله أن يتزوج الاماء . ولكن إذا استطاع الصبر على عدم الزواج فهذا أفضل من زواج الاماء . وقد يبدو هذا موقفا متشددا ضد الاماء واندماجهم فى المجتمع، ولكن الجانب الآخر والأبعد أثرا ما ينجم عن هذا الزواج من افساد لعلاقات اجتماعية قائمة ، ومصير نتاج هذا الزواج من الأبناء وكثير من السلبيات التى يمكن رصدها .

والمهتم بهذه المواضيع يفترض أن يعرف إن الاسترقاق يؤدى بالضرورة إلى تشوهات غائرة فى نفوس وحياة وقيم وعلاقات وأخلاق وسلوك الأرقاء . باختصار الرقيق سلعة حقيقية للتداول ، والإسلام عمل على العلاج الجذري للمشكلة وتحديد منهج واضح للموجود من هذه السلعة فى السوق .

قد يكون التجاوز فى مسألة الرق فى الدولة الإسلامية - التى ا ـت أكبر مركز عالمي للاتجار فى هذه السلعة فى ذلك الزمان - ر ضمن التنازلات التى صاحبت التنازلات السياسية بعد الحكم الر شد .. وغيرها كثير .

ما الحكم الثانى فى الآية الكريمة والخاص بالاماء ، أن على الأمة الزانية المتزوجة نصف ماعلى الحرة الزانية المتزوجة ، وهذا تأكيد على حقيقة التشوهات الناجمة عن داء الاسترقاء وأنه أصبح بمثابة نصف إنسان إن جاز التعبير .

والجانب الآخر من هذا الحكم يقودنا مباشرة إلى مسألة الرجم .

الرجم فى الإسلام

أولا : كون نصيب الأمة الزانية المتزوجة نصف نصيب الحرة الزانية المتزوجة ، يخرج الرجم بالضرورة من حيز الأماكن إلى الاستحالة .

ثانيا : كما هو معلوم ، لم يرد نص قرآني في حكم الرجم ، بل ورد نص صريح شديد الدلالة والتركيز على عقوبة الجلد . في سورة النور الآية الأولى " سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون ، الزاني والزانية فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين " .

أن قوة الآيات – التي استهلت بها سورة ذات اسم ذي دلالات ، في مناسبة ذات دلالات – تجعل من الصعب إن لم يكن من المستحيل تعرضها لنسخ أو تغيير .

ومناسبة السورة والأحكام الواردة هو حديث الإفك ، والإتهام موجه لأمنا عائشة ، وهي بالطبع محصنة .. فيكون حكم الجلد المقترن بالمناسبة خاص بالمحصنات حسب النزول ، وهذا أيضا ينفي إمكانية حكم الرجم .!!

ونرجع للسؤال : هل تنسخ السنة القرآن ؟؟

تعدد الزوجات

النص القرآني الصريح على جواز التعدد وارد في بدايات سورة النساء " يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا " (١) . " وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا ، وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ، ذلك أدنى ألا تعولوا " (٣) .

وجاءت آيات أخرى عن النفي القاطع لامكانية العدل ، كما جاءت أخرى أيضا عن بعض التجاوز في ميزان العدل .

إنه لجدير بلفت النظر لهذه المقدمة التى هي في غاية الجمال والإبداع فى الآية الأولى . وهذه الدعوة القوية للتعامل الإنساني الراقى المرتبط بتقوى الله والتذكير بخلق الذكر والأنثى من نفس واحدة مع التركيز على أولى الأرحام ، ثم الدخول فى علاج الموضوع الرئيسي ، علاج مشاكل الأيتام ، وهم من النفس الواحدة وأولى أرحام . ومن بين وسائل وأساليب علاج المشكلة الأيتام : الزواج ، وهو قد يكون من أفضل العلاجات للأطفال ولأمهاتهم .

ومع هذا المبرر القوى الداعى لتعدد الزوجات حتى الرابعة ، فإنه نص على المطالبة بالعدل كما نص على ما طاب لكم من النساء - ومع الشعور بما فى هذه الزيجة أو الزيجات من تضحية إلا أنه توجد هذه الاشارة اللطيفة إلى الرغبة والتعامل مع هذه الزوجة كأنثى مستطابة .

قد يكون من الأفضل ذكر بعض الشئ عن ماهية العلاقة الزوجية والتى هى مكان التساؤل عن مشروعية التعدد فيها . وأيضا نجد أكمل وصف لها فى القرآن الكريم .

سورة الروم " ومن آيته أن خلق لكم من أنفسكم أزوجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة أن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون " (٢٠) .

من أنفسكم أزواجا : الأصل فى العلاقة الإنسانية العلاقة الزوجية من الابتداء - آدم وحواء كفردين أو نفسين ، واستمرار ذلك فى ذريتهما ، وأن العلاقة عمودية . بمعنى أن الأصل علاقة الأزواج الحاليين مع أزواج سابقين - الوالدين - وأبنائهم ثمار الزواج الحالي تنجم عنهم زيجات لاحقة . ونذكر بنظام توزيع المواريث فى الإسلام الذي يقوم على مبدأ توزيع التركات على الأزواج والأصول والفروع - عمودي - ولا يتوارث الشقاء - أفقى - إلا فى حالات خاصة .

ولتسكنوا إليها : ماديا ومعنويا .

بملاحظة الواقع والتجارب العملية يمكن القول أن المودة والرحمة تكاد تنتفي تماما فى حالة التعدد ، بالإضافة إلى التشوهات التى يحدثها التعدد فى العلاقات : الأبناء ، الأسر ... وهنا نشير إلى احداها قد لا ينتبه إليها كثيرون :

تخوض الزوجة معركة مصيرية ضد خصومها الطبيعيين والتقليديين – الزوجات الأخريات وأبنائهم – للاستحواذ على أكبر قدر من المكاسب لها ولأبنائها ، والجنود المطيعون فى هذه الحرب هم الأبناء . ومن يخذل الأم من أبنائها فى هذه المعركة فهو الخائن المنبوذ ، وكل من ليس معنا فهو ضدنا ، ولا يغني عنه إخلاص الدهر كله ولن ترضى عنه الأم وكفى بذلك تشويها للأمومة .

مما تقدم يمكن القول أن الأصل فى إباحة التعدد كما هو وارد فى النص ، خاص بعلاج أوضاع الأيتام وما يمكن قياسه عليها من اشكالات .

نخلص إلى إن التعدد مثله وكثير من القضايا الهامة يحتاج إلى إعادة نظر .

العنصرية والتفرقة

تواترت الآيات عن كرامة ومساواة الإنسان بصرف النظر عن العرق والدين والجنس – ذكر أم أنثى (ولقد كرمنا بنى آدم ...) عام ومطلق .

" إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا أن أكرمكم عند الله اتقاكم " ويتضح فى الآيات الوارد ذكرها عاليه أن الإسلام لا يقر التفرقة وإزدواجية المعايير والمفاهيم ضد بعض الاعراق وضد جنس النساء . وهذا يحتاج إلى عناء فى البحث والتقصي ولا أحسبه مكان خلاف من ناحية دينية لكن السؤال :

كيف برزت هذه الأفكار والمفاهيم ونمت واستقرت فـــى وجــدان المجتمعات الإسلامية ، حتى أصبحت جزءا من التراث الدينى لا تثـير الاستنكار ولا الريبة ولا الفضول ؟؟

أهى جزء من التنازلات التى قدمتها السلطة ومنظروها وعلماؤهـــا كجزء من الثمن ، وحتى يجد الآخرون – كما وجدت السلطة – مـــن يمارسون عليه رذائل البغي والعدوان والتسلط ، كمـــا فعــل الحكــام معهم ؟؟

المال فى الإسلام

المال فى الإسلام كما هو معـــروف مــال الله ، وأحكـــام الزكـــاة والصدقات معلومة ، لكنا نشير إلى :

ما جاء فى سورة الفجر " وتحبون المال حبا جما " (٢٠) .

فى هذه الحالة المال مثله والشهوات ونوازع الشر والسلبيات التـــى جبل عليها الإنسان ، وهو مطالب بـــالتحكم فيـــها والســيطرة عليـــها وترويضها ... الخ .

سورة الحشر " ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله ورسوله ولذي القربى واليتامي والمسكين وابن السبيل كى لا يكون دوله بيـــن الأغنياء منكم ، وماأتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا " (٧) .

نشير هنا إلى (كى لا يكون دوله بين الأغنياء منكم) والتى هـــى علة التقسيم المفصل فى الآية . وهذا حكم قاطع وملزم فـــى الأمـــوال الخاصة ، أن لا تكون دوله بين الأغنياء وكل ما يـــؤدي إلـــى هـــذا الوضع المرفوض فهو مرفض أيضا. (وما آتاكم الرسول فخذوه ومـــا نهاكم عنه فانتهوا) هل هذه إشارة إلى التدرج الاختياري لمن يشـــاء ويستطيع تقليد النبى صلى الله عليه وسلم فى ذات نفسه – ما بات فـــى بيته درهم ولا دينار – (والآخرة أكـــثر تفضيـــلا) . وكـــان المـــال ومازال من أهم أسلحة وتسهيلات الظلمة من الحكام .

حكم المرتد

التاريخ الإسلامي يشهد بإستغلال هذا السيف البتار فى قطع رقـــاب كثير من المفكرين والمعارضين وإرهاب الآخرين ، لكـــن نجـــد فـــى القرآن ما يلقى بظلال كثيفة على الحكم بقتل المرتد .

التوبة " يحلفون بالله ما قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم الله وسوله من فضله ، فإن يتوبوا بك فهو خيرا لهم ، وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا إليما فى الدنيا والآخرة وما لهم فى الأرض من ولى ولا نصير " (٧٤)

" الذين آمنوا ثم كفرو ثم ازدادو كفرا " .

تكرار الكفر والإيمان يدل على تكرار الردة ، وهم بالطبع إحياء .

نظام الحكم فىالدولة الإسلامية

إن الدعوى لتطبيق حكم إسلامي مبهم لم ولن نجني منها إلا المزيد من التخلف والإستغلال والجهالات . نريد بالتحديد والتفصيل مفـــهوم صاحب الدعوة للحكم الإسلامي : ماذا يريد أن يعمل ؟؟ وكيف ؟؟

يفترض في نظام الحكم فى الدولـــة الإســـلامية تحقيـــق المفـــاهيم الإسلامية الأساسية مثل :

١. حمل المسئولية .
٢. رفض السيطرة .
٣. كرامة الإنسان .
٤. العدل
٥. الشورى
٦. حتمية وجود الخلاف

قد يكون النظام اليمقراطي الذى يوفر الحرية ، التـــداول الســـلمي للسلطة ، الأحزاب والتنظيمات والتجمعات السياسية .. أكثر الصيـــغ المتوفرة قابلية لتحقيق المفاهيم الإسلامية ونظام الحكم الإسلامي .

- من الممكن قيام أحزاب سياسية مختلفة ، فقد وجدنا أن الخلاف آفة دائمة فى كل من المستويات . كما وجدنا الاختلافات الكبيرة بين السياسات – خاصة المالية – لكل من الراشدين : أبو بكر وعمر وعثمان .
- إمكانية التداول السلمي المنظم للسلطة أفضل من الثورات والإغتيالات .
- من حق المجتمع رفض الحكم الإسلامي بالوسائل الديمقراطية – الأغلبية – ومن يرى غير ذلك فبأى صيغة أو كيفية يريد فرض إرادته وسيطرته – ونحن نعلم أن الله سبحانه وتعالى منع رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم من السيطرة والإكراه .

" لست عليهم بمسيطر " الغاشية (٢٢) .

" ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين " يونس (٩٩) .

الدعوة لتطبيق الشريعة الإسلامية

كثيرا ما يفهم من هذه الدعوة إرتباطها بقانون عقوبات إسلامي ، وبعض الممنوعات .

إذا أحصينا الآيات الخاصة بذلك فلن تزيد على صفحة أو ورقة واحدة من الحجم المتوسط . فماذا صنعنا بباقي كلام الله ؟؟

قد يكون نسبة من يطالهم قانون العقوبات من المجتمع بنفس النسبة السابقة – الآيات للقرآن .

ماذا عملنا لباقى المجتمع ؟

إن الذي يطول المجتمع وينتفع بكل القرآن ، ويؤدي بالضرورة إلى انخفاض نسبة من يطولهم القانون وهي :

القضايا السياسية .
القضايا الاقتصادية .
القضايا الاجتماعية .

" وما فرطنا في الكتاب من شئ "
صدق الله العظيم .

خاتمــــة

القدسية التي يتمتع بها منهج أو فكر أو نـــص تكسبه خصــائص وفعاليات وموجهات بعيدة الأثر في كل مناحي حياة الجماعة المعنيـــة سلبا و(أو) إيجابا ، ومن أهم هذه الآثار خطـــورة التعـــامل مـــع - المقدس - نفسه .

بعيدا عن الإلزام الديني والعقائدي ، يمكن القول من الناحية الفكرية المجردة أن الدين الإسلامي يوفر المنهج أو النظرية لنظـــام سياســـي واقتصادي واجتماعي يتصدر مسيرة التقدم الإنساني ، وبنفس القـــدر تشكل قدسية أوهام الجاهلين العقبة الكأداء التي تتحطـــم حيالـــها كـــل الجهود الإصلاحية .

بعد صياغة الفرد ، مكان التكليف ، المطالب بـــالتفكر الاجتمـــاعي بطبعه وتكليفه ، لم يؤمر بالشورى فقط ، إنما هـــي مـــن خصائصـــه ومكوناته ، عليه ممارستها في كل مســتويات الجماعـــة : الأســـرة ، المجتمع ، الدولة .. مع التـــأكيد علـــى مبـــادئ الحريـــة والمســـاواة المنصوص عليها ، ابتداء من " من شاء فليؤمن ومن شـــاء فليكفـــر " حتى النهي القاطع عن السيطرة ، التسلط ، الإكراه ... ، مع التذكـــار المتكرر بحتمية الخلافات .

على أساس معرفية يقينية يكون السعي لتغيير أساليب التعامل فـــي المجتمع بما يكفل تطوره وتطور المنهج الدائمين ، ممـ . ـف مراكـــز توازن متجددة ومتطورة .

" واتبعوا أحسن ما نزل إليكم من ربكم "

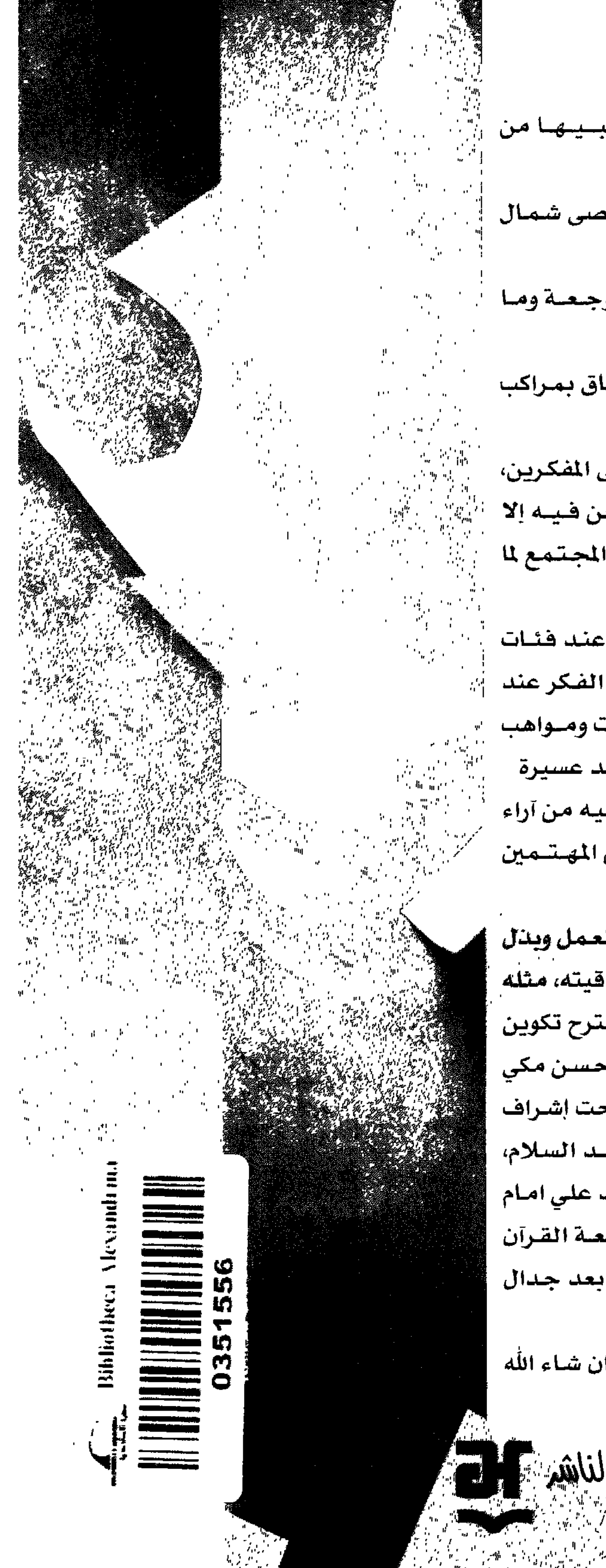
صدق الله العظيم

فهرس المحتويات









.. من رحى الحياة الدائرة وما بين قطبيها من متباينات ومتناقضات..

من أقصى يمين السعادة المترفة حتى أقصى شمال الشقاء والتعاسة..

من براثن الردى وقبضته الدامية الموجعة وما يخلفه من حسرات وأسى وعظات وعبر..

ولتجاوز حضيض الواقع المرير للحاق بمراكب الطموحات الفارة..

هذا صوت خافت بالدعاء والثناء على المفكرين، حداة الركب، وأن ليس لنا مخرج مما نحن فيه إلا بعون الله وجهدهم، وأن لهم قيادة مسيرة المجتمع لما فيه صلاحه..

واذا كان جهاد النفس و الجهاد الأكبر عند فئات المجتمع الأخرى، فإنه يضاف إليه جهاد الفكر عند هذا النفر الذين اختصهم ربهم بقدرات ومواهب لانجاز مهام القيادة والريادة .. وهي مهام جد عسيرة

لقد عرض مؤلف هذا الكتاب ما جاء فيه من آراء وأفكار يمكن ان توصف بالجراة على بعض المهتمين من شيوخ وأكاديميين:

قال د/ الحبر يوسف نور الدائم بأهمية العمل وبذل الجهود لإكماله بإنجلترا، وتبينت لي مصداقيته، مثله د/ حسن حسين ـ جامعة الجزيرة ـ الذي اقترح تكوين لجنة مصغرة والعمل في سرية. اما د/ حسن مكي فقال بنشره ومناقشته على نطاق واسع تحت إشراف لجنة منه وأمين حسن عمر والمحجوب عبد السلام، واعترض الأخير على النشر. سلم د/ أحمد علي امام ملزمته المصورة لأحد كبار الشيوخ بجامعة القرآن الكريم، سارع الشيخ برفضه .. لكنه تراجع بعد جدال مرير..

ويبقى رأي القارئ الكريم الذي سيجد ـ ان شاء الله ـ متعة في متابعة ما جاء فيه..

الناشر